مدنية

سورة آل عمران

ترتيبها ٣

آياتها ٢٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ﴿الٓمٓ﴾

هذه الحروف: الله أعلم بمراده بها ولا شك أنها نزلت لمعانٍ عظيمة، ومقاصد كريمة.

٢ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾

الله المستحق الألوهية الذي لا يجوز أن تصرف العبادة إلا له، فهو واحد أحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهو الحي الباقي الدائم بعد فناء خلقه حياةً كاملةً لا تشبه حياة المخلوق، وهو القائم على تصريف الخلق وتدبير الكون.

٣ ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾

نَزَّل عليك القرآن - يا محمد - بالحق القاطع والدليل الساطع والبراهين الباهرة، والحجج المتظاهرة، يصدّق ما سبق من كتب نزلت على الرسل قبلك، وهو سبحانه الذي أنزل التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى ليبيّن الحق لبني إسرائيل.

٤ ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾

وأنزل - سبحانه - الكتب التي فيها فرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال، والذين يجحدون هذه الآيات البينات ويكفرون بربهم ويحاربون رسله جزاؤهم العذاب الشديد الدائم في نار جهنم؛ لأن الله يمحق من عاداه، ويكبت من عصاه؛ لعزته المتناهية ينتقم ممن خالف أمره فيوقع به أشد النكال وأفظع العقاب، لا يقدر على مثله منتقم.

٥ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾

والله - سبحانه - مطلع على المغيبات، عالم بالخفيات، مما يقع في الأرض قلَّ أو كثر في السر والعلن من تصرفات الناس وغيرهم، ومحيط علمه بما يقع في السماء من الملائكة وغيرهم؛ لأن الكل في ملكه وتحت سلطانه.

٦ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

ومن آثار علمه وحكمته وقدرته تركيب صوركم في أرحام أمهاتكم باختلاف اللون والجنس والشكل كما يريد سبحانه، فما دام أن هذا خلقه وتدبيره وقدرته فلا معبود بحق غيره ولا إله إلا هو، فهو العزيز الذي قهر سواه، لا يغالبه مغالب ولا يقهره محارب، حكيم يدبر بلطف ويقضي بحكمة.

٧ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

وهو سبحانه وحده الذي أنزل عليك القرآن - يا محمد - وفيه آيات واضحات صريحات لا لبس فيها ولا غموض، ظاهرة للفهم، معلومة للقارئ، كالأحكام الشرعية والأخلاق والآداب، وهي أصل هذا القرآن وأكثره، وفي القرآن آيات

أخرى ليست واضحة بل تحتاج إلى تفسير وتأمل وتوقف أحيانًا كالحروف المقطعة في أول السور، فالذين في قلوبهم ريبة وهوى يبحثون في غير الواضح من القرآن ليتعلقوا بشبه، ويؤيدوا باطلهم؛ ليزرعوا الشك في القلوب، ويُحْدِثُوا الخلاف بين الناس، وليفسروه بما يوافق باطلهم، ويزعموا أنه يؤيد ما ذهبوا إليه، كالنصارى الذين استدلوا بقوله - تعالى - عن عيسى: ﴿وروح منه﴾ قالوا: خرج منه، فهو ابنه - تعالى الله عن ذلك - وتركوا المحكم الصريح في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وكذلك كل صاحب بدعة يأخذ من الدليل المحتمل ما يوافق هواه ويؤيّد باطله، والذي يعلم معنى المتشابه حقيقة هو الله وحده؛ لأنه اختص بعلمه كعلم الروح وغيرها، وأهل العلم المتمكنون الغائصون في الحقائق يردون العلم إلى ربهم، ويعترفون بعجزهم أمام هذا المتشابه، ولكنهم يؤمنون به ويعلمون أن له معنى وحقيقة، ويرون أن الجميع من المحكم والمتشابه كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهم يعملون بالمحكم ويؤمنون بالمتشابه، والذي يقبل النصح وتنفع فيه الموعظة هو صاحب العقل الفطن والقلب السليم، فهو لفهم عقله يدرك، ولطهارة قلبه يؤمن، فينفعه المعنى ويدرك المقصود ويصل إلى الحق.

٨ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

وعباد الله المؤمنون يسألون ربهم ويقولون: إلهنا وخالقنا ورازقنا لا تصرف قلوبنا عن الحق الذي أرسلت به رسولك بعد أن عَرَّفتنا به وأرشدتنا إليه، وذقنا حلاوته، وعرفنا صحته، وتفضل علينا بلزوم الحق والثبات على الصدق، فمن هديته وعن الباطل صرفته فقد رحمته؛ لأن فضلك لا يحد، وكرمك لا يعد، وعطاؤك لا يرد، تهب لمن لم يطلب ولمن طلب.

٩ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

ويدعون فيقولون: إلهنا وخالقنا ورازقنا أنت سوف تجمع الخليقة ليوم العرض عليك، والقدوم إليك، وهذا اليوم حاصل لا محالة، وواقع لا شك فيه، فأنت لا تخلف ما وعدت وقد وعدت به، فوعدك آت ولقاؤك حاصل، وقولك نافذ.

١٠ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾

المكذبون لرسل الله، المشركون بالله، المحاربون له لن تنفعهم هذه الأموال التي يجمعونها ولا هؤلاء الأبناء الذين يربونهم، فلن تمنعهم من عذاب الله، ولن تدفع عنهم غضب الله، وأولئك هم حطب جهنم؛ لفظاعة ما ارتكبوه وشناعة ما فعلوه، فيالسوء المنقلب، وفظاعة المصير.

١١ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

مثل هؤلاء الذين كذبوك كمثل قوم فرعون ومن سبقهم من الأمم الكافرة، كلهم اجتمعوا على جحد ما أنزلناه ومحاربة من أرسلناه، مع أن آياتنا بينات، وحججنا واضحات، لكنهم كذبوا بالصدق، وردّوا الحق، فالله - جل في علاه - لما فعلوا ذلك أخذهم أخذ عزيز مقتدر فنكّل بهم، ونوّع أساليب تدميرهم وعذابهم من إغراق وريح وصاعقة وخسف ومسخ وغير ذلك من أشكال العقوبات وأصناف المثلات؛ لأن أخذه قوي وعذابه أليم.

١٢ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

أخبر - يا محمد - كفار مكة بأنهم سوف يُهزمون في الدنيا ويعذبون في الآخرة؛ لأنهم كفروا بالله وكذبوا رسوله، فالخزي والعار عليهم في هذه الدار، والعذاب والنكال ينتظرهم في النار وبئس القرار، ففراشهم الجحيم، ولباسهم القطران والحميم.

١٣ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

أما أخذتم يا معشر الكافرين العبرة مما حصل في بدر، يوم اجتمع أهل الإيمان وعبدة الأوثان، فالمؤمنون ينصرون الرحمن، والمشركون يقاتلون مع الشيطان، والكفار يشاهدون المؤمنين بأبصارهم أكثر منهم مرتين، وليس في المنام ولا

في الأحلام، فالله وحده أعز عبده، ونصر جنده، وهزم المشركين وحده، فانتصر المؤمنون، وشفى الله غيظهم من عدوهم، ووقع القتل والأسر والهزيمة بأعداء الله من كفار قريش، وهذه المعركة فيها أبلغ العظات، وأعظم الحجج البينات على نصر الله أولياءه وإن قلّوا، وسحْق ومحْق أعدائه وإن كثروا، لكن لا يعتبر إلا مستنير القلب سليم الإدراك.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾

جُمِّلت الدنيا في عيون الخلق بلذَّاتها وفتنها وشهواتها ابتلاءً وامتحانًا من الله للناس فأحبوها وعشقوها، كفتنة النساء، وهي أعظم فتنة؛ لكثرة الإغراء والإغواء، وحب البنين؛ لأنهم فلذات الأكباد وباقات الفرح والإسعاد، وخزائن المال المحفوظة المقفلة؛ لارتفاع أثمانها وغلاء قيمتها من ذهب وفضة ونحوها، وحبب إليهم الخيول المعلمة بأحسن الألوان وأبهج الأشكال، وهي الغالية الثمينة الفريدة، وكذلك أحبوا الإبل والبقر والغنم؛ لأن فيها المنظر البهي والمطعم الشهي والمركب الوطي، وأحبوا الحبوب والثمار والنبات والأشجار؛ لاختلاف طعومها وتعدد أذواقها وجمال منظرها وكثرة فوائدها، وهذه كلها متاع زائل وزينة ذاهبة؛ لأن الدنيا يفنى نعيمها ويسافر مقيمها، لا بقاء لها ولا قرار، ولا وفاء لها ولا حسن جوار وما هي إلا شرَكَ الردى وقرارة الأكدار، أيام معدودة، وآجال محدودة، وأرزاق مقسومة، لكن النعيم المقيم والفوز العظيم عند الملك الكريم، في دار من دخلها أمن، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ولا عدم ولا سقم ولا هرم، فلا تنخدعوا بفتنة الدنيا عن ذاك المصير، ولا تغتروا بهذه الشهوات عن الفوز الكبير، فخاب - والله - من قدّم الفاني على الباقي، والخسيس الرخيص الذاهب على الثمين الغالي الدائم.

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

قل لهم يا محمد: ألا أخبركم بأحسن وأجمل وأفضل من هذه الشهوات واللذائذ الزائلات، أفضل منها - والله - حدائق غناء، وبساتين فيحاء، وأنهار جارية، ونعيم مقيم، وحبور وسرور، وقصور ودور، ونساء طاهرات، من كل دنس ونجس، فيهن حسن وجمال، وعفاف وكمال، مع حلول الرضا والغفران عما مضى، في أمن وسلام، وحسن مقام كل هذا لمن اتقى مولاه، وخشي ربه، فهذا أحسن من دار الفناء ومنزل الشقاء، ودنيا الهم والنكد، والمصائب والكبد، ولكن لا يفوز بنعيم الجنة إلا من صدق مع ربه ظاهرًا وباطنًا؛ لأن الله بصير بعباده يعلم ما يسرون وما يعلنون، فيجازي كلاً بما صنع، ويحاسب كلاً بما فعل.

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

ومن صفات هؤلاء الفائزين أنهم يدعون ربهم فيقولون: يا ربنا آمنا بك وصدقنا بكتابك واتبعنا رسولك؛ فتجاوز عن زلاتنا، واعف عن خطيئاتنا، ونسألك النجاة من النار دار البوار ومقر الأشرار، فهم أقروا بما لله عليهم، ثم سألوه غفران الذنوب، ثم دعوه أن يصرف عنهم العذاب.

﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

وهم صابرون على الطاعة في الشدة والرخاء، صابرون على البأساء والضراء والبلاء ومجاهدة الأعداء، صادقون في النية والأقوال وسائر الأعمال والأحوال، مطيعون دائمون على امتثال الأمر واجتناب النهي، وهم يستغفرون الغفار من الأوزار في الأسحار وقت نوم الناس وراحتهم، وزمن صفاء النفس وإشراقها، وموعد تنزل الكريم المنان إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل.

﴿١٨﴾ ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

شهد الله لنفسه أنه لا إله إلا هو، وأنه لا يستحق العبودية سواه، وأنه واحد أحد، وأقام على الشهادة الدليل من بديع الكائنات وسائر المخلوقات وعظيم الآيات، وشهدت الملائكة المقربون بالوحدانية للأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وشهد العلماء بهذه الشهادة العظيمة، وأقروا بها لفضل ما عندهم من العلم، ويكفيهم شرفًا وفخرًا اختصاصهم من دون الناس بهذه الشهادة، وهذا أعظم دليل على فضل العلم النافع. والله الواحد الأحد، وهو الذي يقيم العدل في الأنفس والآفاق، والآجال والأرزاق، فكل قضائه عدل، وكل حكمه فصل، وكل عطائه فضل، فلا معبود بحق سواه، ولا مستحق للألوهية غيره، لأنه الرب الخالق الرازق المالك. فقد عزّ عن أن يكون له ندٌّ، وجل أن يكون له ضدٌّ، حكيم فيما فعل؛ لأنه خلق بإتقان، وأوجد بإحسان، وأعطى بامتنان، فبعزته قهر ما سواه، وبحكمته أبدع ما نراه.

﴿١٩﴾ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

الدين الصحيح المقبول عند الله هو دين الإسلام، الذي أتى به رسول الهدى ﷺ، وكل دين غيره باطل مردود، ومن ابتغى سواه فلن يقبل الله سعيه، ولا يرضى عمله، وما اختلف اليهود والنصارى في رسالة محمد ﷺ إلا من بعد ما تحققوا من أنه هو المقصود؛ فجحدوا استكبارًا، وكذبوا عنادًا، وأعرضوا بغيًا وحسدًا، ومن يكذب بآيات الله ورسله فإن العذاب ينتظره؛ لأن الله لا يعجزه حساب الخليقة على كثرتهم، فإنه يحاسب الجموع الكثير في الوقت القصير، فحسابه للبرية كافة كحسابه لنفس واحدة.

﴿٢٠﴾ ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

فإن جادلوك - يا محمد - بأهوائهم الباطلة، وأقوالهم المتهافتة، فأخبرهم أنك أخلصت دينك لله على بصيرة من الله، ترجو ثواب الله، فأنت وأتباعك على يقين من الحق الذي معكم وعلى صراط مستقيم، واسأل اليهود والنصارى والمشركين بعد هذا البيان وظهور الإيمان وسطوع البرهان، أما قبلتم الإسلام دينًا، وعلمتم أنه حق من عند الله؟ فإن اتبعوك وصدَّقوا بما جئت به فقد أصابوا وسدّدوا، فلهم الحظ الأعظم، والفوز الأكبر، وإن أبوا وكذبوا وعاندوا فقد بَلَّغتَ رسالتك، وأدَّيتَ أمانتك، فلا تحزن لكفرهم، ولا تهتم لتكذيبهم، فمصيرهم إلى رب العباد الذي هو بالمرصاد لأهل الكفر والعناد، وهو عالم بعمل الجميع، مطلع على كل دقيق وجليل؛ ليوفي كلاً حسابه.

﴿٢١﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

إن اليهود الذين كذبوا بما جاءت به رسلهم من الآيات، وقتلوا الأنبياء وأتباعهم من الدّاعين إلى الله، فهؤلاء لهم عذاب أليم في الجحيم، جزاء صنيعهم الشنيع وفعلهم الفظيع، وهي شاملة لكل من سخر من الشريعة أو صد عنها أو آذى حملتها باضطهاد أو حبس أو قتل.

﴿٢٢﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

هؤلاء الكفرة الفجرة أبطلوا ما عملوا من خير بما فعلوا من شر، فلا سعادة لهم في الدنيا ولا نجاة في الآخرة، بل حياتهم عار ودمار، وآخرتهم لعنة ونار، وليس لهم من ينصرهم فيدفع عنهم العذاب، ويمنعهم من العقاب؛ لأن الله غالب على أمره ولا راد لقضائه.

﴿٢٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾

ألا تعجب من اليهود الذين تعلموا كثيرًا من التوراة وعرفوا ما فيها من أحكام، يُقال لهم: تعالوا عند المنازعة إلى التوراة لتأخذوا حكم الله منها، وبعد سماع الحكم تأبى طائفة منهم هذا الحكم الإلهي وتطلب غيره صدودًا وعصيانًا وتمردًا وطغيانًا.

﴿٢٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

وسبب إعراضهم عن شرع الله أنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه؛ والحبيب لا يعذب حبيبه، فلا يُعَذِّب إلا مدة يسيرة بمقدار ما عبدوا العجل وهذا الزعم منهم كذب ودجل، بل ليس له أصل، فكل من كفر بالله خلّده في نار جهنم كائنًا من كان، لكنهم يقولون: إن الله وعد يعقوب ألا يعذبَ أبناءه، وهذا كذب وافتراء، وزور وهراء.

﴿٢٥﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

فماذا يفعلون إذا أحضرناهم للحساب وأتينا بهم للعقاب؛ في يوم واقع لا محالة، لتحاسب كل نفس على ما قدمت من خير أو شر بلا ظلم ولا جور.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

فيامن بيده الملك ومقاليد الأمور والمتصرف في الخلق والمدبر للكون وله من في السموات والأرض، أنت وحدك تعطي الملك من تريد من عبادك، وتخلع من تريد منهم من ملكه، وتمنح العزة من تريد، وتدخل الذلة على من تريد؛ لأنك وحدك القادر على النفع والضر، فلا يعجزك شيء ولا يتعاظمك أمر، ولا يستعصي عليك مطلب؛ لأن قدرتك نافذة، وحكمك ماض، وسلطانك قاهر، تقدست عن الأنداد، وتنزهت عن الأضداد.

﴿٢٧﴾ ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

وأنت وحدك -يا حكيم- من يدخل الليل في النهار بعد انقضائه فيذهب ضياؤه، ويدخل النهار في الليل بعد انتهائه فتذهب ظلمته فتزيد من هذا في هذا بمشيئتك، يُغْشِي الليل النهار حثيثًا، فإذا الظلام يمضي رويدًا رويدًا حتى يطبق العالم بجلبابه، ويُغْشِي النهار الليل، فإذا النور يتضاءل شيئًا فشيئًا حتى يبهر العالم بنوره في نظام عجيب وحكمة باهرة، وقدرة نافذة، وتنبت الزرعة الخضراء من الحبة اليابسة، والنخلة الباسقة من النواة الجامدة، والبيضة الميتة من الدجاجة الحية، فأيَّ قدرة أعظم، وأي صنيع أعجب وأي فعل أحكم من هذا !! تاهت الأفكار في عظمة العزيز الغفار، بل كل آية في الكون سطر في كتاب العظمة، وحرف في سفر الوجود شهدت بألوهية وربوبية الملك الحق المعبود، وهو - سبحانه - وحده يعطي من شاء من عباده ما شاء من عطائه هبةً منه بلا حد، وسخاء بلا عد، وكرمًا بلا رد.

﴿٢٨﴾ ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

لا توالوا -أيها المؤمنون- الكافرين من دون الله وتتخذوهم أحبابًا وإخوانًا وأصحابًا وأعوانًا من دون المؤمنين، فإن فعلتم ذلك من الولاء لأعداء الله والتنكر لأولياء الله، فلستم عباد الله حقًا، ولا أولياءه صدقًا، ودعواكم الإيمان كذب ونسبتكم إليه زور.

لكن إذا تيقنتم من الضرر الداخل عليكم منهم فأظهروا لهم القول اللين والخطاب الجميل مع بقاء الولاء لله والمحبة في القلب، فهي مصانعة بالظاهر، ومجاملة باللسان فحسب، فمن تيقن من الكفار المكاره جاز له إظهار ما أحبوه.

وخَافُوا غضب الله، فإن الله قد أنذركم ذلك، ونهاكم عن كل ما يوجب عذابه وعقابه، وسوف تعودون إليه لا محالة ليوفي كلاً بصنيعه، من أحسن فله الإحسان، ومن أساء فله العذاب في النيران.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

وأخبر أمتك من أسرّ في نيته شيئًا، أو أظهر من عمله شيئًا فالله مطلع على الجميع عالم بالكل، لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية، فإذا كان هذا علمه بكم وقدرته عليكم فلماذا لا يوقر ويقدر، فهو أولى من عُظِّم، وأحق من اتُّقي، وأولى من قُدِّس، فهو مع ملكه لما في السموات والأرض أحاط بما فيها علمًا، وأحصى ما بها من عدد، وتكفل بما فيها، فهو الذي خلق الزمان والمكان والإنسان، وهو على فعل ما شاء قادر لا يعجزه فعلٌ أن يفعله، ولا يغلبه مغالب أن يقهره، ولا يفوته مطلوب أن يدركه، جل عن الأشباه لا إله إلا الله.

﴿٣٠﴾ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾

ويوم القيامة يوفى كل عامل بعمله فلأهل الخير ثواب وزلفى، ولأهل الشر عقاب ونار تلظى، فما فعلت وجدته أمامك، فالفعل الجميل ثوابه جزيل من رب جليل، والفعل القبيح جزاؤه الخسار والنار، حينها يتمنى من أساء أن بينه وبين عمله أرض وسماء، ويودّ لو أنه عنه بعيد، وأن بينه وبينه بِيْدًا دونها بِيْدُ، لكن هيهات، وقع -والله- في الضنك بلا شك، فليس له خلاص، وما من عمله مناص، والله إنما أخبركم بهذه الأخبار من باب الإعذار والإنذار؛ ليكف النفس عن الردى، ويلزم الصالح طريق الهدى، ومن رأفته بالعباد إنذاره لهم يوم المعاد؛ لأنه تلطف بخلقه وأخبرهم بما يسرُّهم، وأحسن في صرفه عنهم ما يضرهم، فمن رأفته الإمهال بلا استعجال، وقبول التوبة، وتقديم التحذير وإقامة الدليل لقطع الاحتجاج.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يا من ادعى حب الله عليه بالدليل وهو اتباع الرسول والاقتداء به، فمن اهتدى بمحمدﷺ فقد أحبه، ومن أحبه أحب الله، ومن أحب الله استوجب رضاه، فمجرد الدعوى بلا برهان ادعاء، وقول بلا عمل يصدقه افتراء، ومن تبع هذا النبي الأمي أحبه مولاه، واجتباه وسامحه عن خطاياه وتجاوز عن سيئاته؛ لأنه واسع المغفرة، يمحو كثير السيئات بقليل الطاعات، عظيم الرحمة فاقت رحمته بالعباد رحمة الأم بالأولاد، فالواجب على العبد أن يقابل هذه الأفضال بالامتثال، وهذا العطاء بالاهتداء والاقتداء، يهتدي بالكتاب المنزل، ويقتدي بالنبي المرسل.

﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

قل - يا محمد - للناس إن كنتم تريدون السعادة والفلاح، والفوز والنجاح فأطيعوا الله ورسوله بامتثال ما في الكتاب والسنة والعمل بما فيهما من أوامر واجتناب نواهيهما، فإن كذبتم وأعرضتم فأنتم في عداد من كفر، والله يبغض الكفار ولا يحب الفجار؛ لأنهم أعداؤه وأعداء رسوله.

﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

اختص الله بالنبوة واختار للرسالة آدم أبا البشر، ونوحًا أول الرسل، وإبراهيم أبا الأنبياء، وآل عمران بيت الطاعة والصلاح، فميزهم على كل الناس بالاصطفاء، وخصهم بالاجتباء، فقاموا بحقوق الولاية، وأدّوا شكر الهداية.

﴿٣٤﴾ ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وهم سلالة واحدة بعضهم من نسل بعض، يرث التالي الأول في الخير والصلاح، تشابهوا في الفضائل، وتجانسوا في المكارم، أسرة برٍّ، وأهل تقوى، والله أعلم بمن يصطفي؛ لأنه يسمع الأصوات والحركات، ويعلم الخفيات والنيات، فاختياره عن علم، واجتباؤه عن حكمة.

٣٥ ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

واذكر - يا محمد - للناس القصة العجيبة لما دعت امرأة عمران الولي الصدِّيق فقالت: إني نذرت أنَّ ما أحمل في بطني إذا ولدته يكون خالصًا لخدمة بيت المقدس، فأسألك أن تتقبل مني ما نذرت؛ ولأنك تعلم أني جعلته لوجهك لا رياء ولا سمعة، ويكفي علمك لأنك مطلع على الضمير، عالم بالسريرة، تسمع كل مسموع، وتعلم كل معلوم، من أخلص في قصده علمته، ومن أراد غيرك جازيته.

٣٦ ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

فلما ولدت ما في بطنها إذا بالمولود أنثى فكأنها تأسفت فاعتذرت، لأن من عادتهم أن الذكور للنذور، والبنات لخدمة البيوتات، والله عالم لا يُعلَّم أنها أنثى، فهو يعلم السر وأخفى، ثم قالت متحسرة: وليس الرجل كالمرأة في القوة والقدرة على العمل والتحمل؛ لأن الأنثى ضعيفة تصلح للأمومة، والرجل يصلح للكد والعمل.

ثم أخبرت أنها سمتها مريم أي الطائعة العابدة في لغتهم تيمنًا وتفاؤلاً، وأسألك يا رب أن تحفظها وذرِّيتها من نزغات الشيطان وفتنته، فإن من تعصمه في أمان، ومن تحفظه وُفق للبر والإيمان.

٣٧ ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

فقبل الله هذا النذر وهي مريم من أمها قبولاً مباركًا، فحفظها وتولاها، وهداها وأكرم مثواها، وأصلح شأنها واجتباها، وجعل الوصي على تربيتها النبي الكريم زكريا، فتعاهد أمرها بما يصلحها، ورعاها أحسن الرعاية، وتولاها أجمل ولاية، فنشأت عابدة قانتة، لها معبد تعتكف فيه للذكر والعبادة، فكان الله يهيئ لها طعامًا يكفيها وقت حاجتها إلى الطعام، دون كسب ولا تعب منها؛ كرامةً من الله لها، فتعجب زكريا من وجود هذا الطعام وسألها من أين ومَنْ جاء به؟ فأجابت: هو رزق من عند الله الكريم المنّان، وهو - سبحانه - يعطي من يشاء بلا حدود؛ لأنه واسع الفضل عظيم الجود.

٣٨ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَب لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

فلما رأى زكريا هذه الكرامة وشاهد هذه العلامة، تضرع إلى ربه ومولاه وسأله ودعاه أن يهب له ولدًا صالحًا من زوجته العقيم على شيخوخة منه؛ لأنه لما أبصر ما أكرم الله به مريم من إحضار الطعام بلا كد ولا اجتهاد، طمع في الأولاد من غير السبب المعتاد؛ لأن الواحد الأحد لا مستحيل يمنع قدرته ولا صعب على إرادته.

٣٩ ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

فأجاب الله دعوته فنادته ملائكة الرحمن وهو في مسجده يصلي، فبشرته بمولود كريم، وصبيّ حليم، يصدق نبوة عيسى الذي خُلق من الله بكلمة كن من دون أب.

وهذا المولود المبارك سوف يسود الناس في زمانه بالعلم والحكمة والنبوة، وهو ورع تقي عفيف، يصون نفسه عن الشهوات، ولا يقرب النساء لتفرغه للعبادة، واشتغاله بالسيادة، وانهماكه في الخيرات، وفعل الصالحات، وهو نبي يوحى إليه، معصوم من الخطايا، عامل بمقتضى الحكمة.

٤٠ ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾

يا رب كيف يولد لي مولود وقد كبرت سني ورقَّ عظمي ودهمتني الشيخوخة، وزوجتي أصابها العقم لا تنجب، فأخبره ربه أنه يفعل ما أراد، لا يستعصي عليه أمر، ولا يستحيل عليه شيء، ولا يعجزه فعل؛ لتمام القدرة ونفوذ الحكمة، يُخرِج الماء من الحجر.

﴿٤١﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾

قال زكريا: رب اجعل لي علامة أعرف بها أن زوجتي حملت بغلام، فأخبره ربّه أن علامة ذلك عجز زكريا عن الكلام ثلاثة أيام من غير خرس ولا مرض، لكن لا تستطيع التعبير عما في نفسك إلا بالإشارة، وهذا لا يمنعك من ذكر ربك؛ فاذكره أول اليوم بعد طلوع الشمس وآخره قبل الغروب؛ إظهارًا للشكر واعترافًا بالنعمة، واستمرارًا على العبودية.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

واذكر حين قالت الملائكة لمريم: لقد اصطفاك ربك ومولاك من بين النساء جميعهن، فحباك بالكرامة ولزوم الاستقامة، وطهرك من كل فعل دنس وعمل نجس، ونزهك عما رماك به اليهود من فرية عظيمة وكذبة وخيمة، فصان الله عرضك - جل في علاه - فكنت بحق أهلاً للاصطفاء ومحلاً للاجتباء.

﴿٤٣﴾ ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

فداومي يا مريم على عبودية مولاك وعلى ذكره وشكره، فبالعبادة تُنال السيادة، وتطلب الزيادة، وتحصل السعادة، وحافظي على الصلاة مع المصلين، فهي قرة العين، وبهجة الروح، وعماد الدين، فبالعبادة تنالين أشرف المقامات، وأجزل الهبات، وأعظم الدرجات.

﴿٤٤﴾ ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾

هذه الأخبار الغيبية -يا محمد- لولا أن الله قصها عليك ما كان لك بها علم؛ لأنه لا طريق للاطلاع عليها إلا بالوحي من الله، مثل قصة امرأة عمران وابنتها مريم الطاهرة المطهرة، وزكريا وابنه يحيى، فأنت - يا محمد - لم تحضر يوم استهموا أيهم يقوم بكفالة مريم، وحين اختلفوا في شأنها، وهذا دليل على أنك رسول من عند الله وعلى صدق نبوتك، فلولا الوحي من القهار ما علمت هذه الأخبار.

﴿٤٥﴾ ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾

واذكر إذ جاءت الملائكة تبشر مريم بولد يولد لها وهي بلا زوج؛ لتكون وابنها آية على قدرة اللطيف الخبير؛ لأن الأصل أن الولد من أب إلا آدم وعيسى، آدم من تراب وعيسى بكلمة «كن» من الله، فالله بشرك بعيسى وسماه ولقبه واختاره واجتباه ورفعه إليه وحماه، وجعله إمامًا في الدنيا ووجيهًا وشريفًا مكرمًا، وفي الآخرة مقربًا عند الله في مقعد صدقٍ، في مقام جليل وفي إكرام وتبجيل.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

ومن المعجزات في خلق عيسى أنه يتكلم وهو طفل لم يمش، ولم يحْبُ ما زال في سرير الولادة مثل كلامه وهو في حال اكتماله، فليس كلامه كلام أطفال بل كلام رجال وهو من الصّالحين المحفوفين بالعناية، المحفوظين بالعصمة.

﴿٤٧﴾ ﴿ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

فتعجبت مريم كيف يكون لها ولد ولا زوج لها ولم يقربها رجل، قال لها الملك: الله قدير على كل شيء لا يعجزه شيء، غلب أمره ونفذت مشيئته، وعمت قدرته، وإذا أراد - سبحانه - إيجاد شيء فإنما يقول له: "كن فيكون".

﴿٤٨﴾ ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾

والله يعلم عيسى الكتابة بلا معلم، ويمنحه العلم النافع والفقه في الدين، ويحسن علم التوراة كتاب موسى، وكتابه وهو الإنجيل، وفيه أن الكتابة باليد منقبة، والفقه في الدين شرف، واتباع الوحي فوز ونجاة.

﴿٤٩﴾ ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡۖ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

ويكرم الله عيسى بالرسالة فيبعثه إلى بني إسرائيل، ويخبرهم أن معه دليلاً قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا على صحة نبوته وثبوت رسالته، منها أنه يشفي من وُلد أعمى فيرده بصيرًا بإذن الله، ويداوي الأبرص فيعود له جلد جميل بإذن الله، ويرد الروح على الميت فيعود حيًا بإذن الله، ويخبرهم بأمور الغيب كأنواع الطعام في بيت كل واحد منهم، وما خزّنه من مال وأخفاه من متاع وهو لم يشاهده، لكن أطلعه الله عليها، وهذه آيات عظيمة وحجج قاطعة على صدق رسالته، إن كانوا يريدون تصديقه واتباعه فقد ظهر الصبح لذي عينين، وقامت الآيات للسائلين.

﴿٥٠﴾ ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

وأتيتكم بعد موسى مصدقًا لرسالته وجعل الله رسالتي رحمة بكم لما فيها من الرخصة والسماحة، فمن ذلك أنني أحل لكم بعض ما كان محرمًا عليكم في شريعة موسى، وعندي معجزة ظاهرة ودليل ثابت على صدقي فيما أدعو إليه، فخافوا الله واتبعوني، واخشوا الله وصدقوني، وفي هذا ركنا العبادة: الطاعة لله، واتباع رسله، أو قل: الإخلاص والمتابعة.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

إن الذي يستحق الألوهية وله العبودية هو الله وحده الذي خلقني وخلقكم، فأنا لست إلهًا ولا ثالث ثلاثة ولا ابن الله، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإنما أنا عبد من عبيده، أكرمني بالرسالة، هذا هو الحق البين الواضح، والطريق القويم الموصل إلى النعيم المقيم، والفوز العظيم.

﴿٥٢﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾

فلما شعر عيسى بتكذيب اليهود ومكرهم وإرادتهم قتله كما فعلوا بالأنبياء قبله قال للمؤمنين ممن صدقوه واتبعوه: من يحميني لأبلغ دين الله؟ ومن يدفع معي أعداء الله؟ فقال الخلّص وهم الصفوة من أتباعه: نحن ننصرك، وقد شهدنا بأن لا إله إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ونحن نستشهدك على صدقنا وانقيادنا لما جئت به من عند ربك.

﴿٥٣﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

ثم دعوا ربهم فقالوا: يا ربنا قد صدَّقنا بما أنزلت على عيسى من الإنجيل واتبعناه، فاكتبنا مع الصادقين يوم القيامة الذين يشهدون على غيرهم من الأمم، وفيه أن أعظم ما يتوسل، إلى الله به هو الإيمان به وبرسله، وأن الصدق في الدنيا نجاة في الآخرة.

﴿٥٤﴾ ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾

ودبروا لعيسى مكيدة، وحبكوا خُطَّة لقتله، فأحبط الله خطتهم، ورد كيدهم، بأن شبه لهم غير عيسى فحسبوه هو، وسلم عيسى ورفعه، وقتلوا الخائن المندس الشبيه لعيسى فلبّس الله عليهم أمورهم، وهتك أستارهم، وأذلهم لأنه أقوى منهم مكرًا، وأعز جانبًا، وأعظم قدرةً، فهو يكيد لأوليائه ويكيد ويمكر بأعدائه.

٥٥ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

أخبر الله عيسى أنه سوف يميته مثل ما يميت عباده، ويرفعه إليه مكرمًا معززًا، ويحميه من كيد الفجار، ويُطهِّره من رجس الأشرار الذين أرادوا قتله فخذلهم الله وأذلّهم، وأخبره الله بذلك ليطمئن إلى حسن التدبير وجميل المصير، ورفع عيسى كان بروحه وجسده، (فالنصارى) كاذبون في قولهم أن عيسى قُتل، فكيف يُؤلَّه ثم يُقتل؟!! ولو كان إلهًا فهل الإله يقتل ويصلب! وقد كذب الله دعواهم، وصدق الله وكذبوا، وتعالى الله وخابوا.

وأخبر الله عيسى أنه سوف يرفع أتباعه ويعزهم وينصرهم إلى يوم القيامة وهم من صدّق برسالته، واتبعه قبل مبعث الرسول ﷺ، وكذلك من آمن بعيسى من أتباع محمد ﷺ دون اليهود الذين كذبوه، والنصارى الذين ألّهوه، ومرجع من اختلف في عيسى إلى الله يوم القيامة؛ ليحق الحق ويبطل الباطل، ويثيب المؤمن الصادق، ويعذّب الكافر الكاذب؛ لأنه الحكم العدل، قوله فصل ليس بالهزل ورحمته فضل.

٥٦ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

فأما من كذبك وكفر بما أنزل عليك وزعم أنك إله وأنهم صلبوك، فلهم خزي في الدنيا من الذل والقتل والأسر والتشريد، ولهم في نار جهنم عذاب أليم، لا ينصره ناصر ولا يشفع له شافع، وهؤلاء هم أهل الصليب وأهل التثليث.

٥٧ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وأما من صدق بالرسالات وآمن بالله وعمل أعمال البر من صلاة وزكاة وغيرها فالله - تعالى - يحفظ لهم ثوابهم، ويتمم لهم أجرهم كاملاً غير منقوص؛ لأنه لا يحب من ظَلَمَ، فكيف يَظْلِم - سبحانه - وقد حرّم الظلم على نفسه، فلا يبخس محسنًا حسناته، ولا يزيد على مسيء سيئات لم يعملها.

٥٨ ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

هذه الأخبار نقصُّها عليك - يا محمد -، وهي بالصدق أتت، وبالحق نزلت في هذا الكتاب المبارك الذي أوحيناه إليك، وفيه الشرف لك ولقومك، والحكمة المتناهية؛ لأن من أنزله عزيز كمل سؤدده وعظم ملكه، حكيم فصّله بعناية وأنزله للهداية.

٥٩ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

إن خلق عيسى كخلق آدم، فإن آدم خُلق بلا أب ولا أم، وهذا أتم في الإعجاز، وأكمل في القدرة، فخلق عيسى من باب أولى وفيه ضرب الأمثال، والإقناع بالتدرج، وإحالة المشكوك فيه إلى المعلوم، فآدم متفق عليه بين عقلاء البشرية أنه من تراب، صور بكلمة «كن» من الله، فلا يستغرب إذًا خلق عيسى.

٦٠ ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

هذا فصل الخطاب في قضية عيسى، وهو الصدق البيّن والحق الواضح، فلا تَشُكّ مع من شك، بل اعتقد ما قلناه ولا تلتفت لغيره من الهراء، ولا تصدق سواه من الافتراء.

٦١ ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

فمن خالفك وخاصمك بعد هذا الحق الذي أخبرناك به فباهلهم مباهلة، وَأمْرهم أن يجمعوا أحب الناس إليهم من الأبناء والنساء، ثم ادعوا جميعًا أن يلعن الله الكاذب في شأن عيسى، وقد دعا ﷺ نصارى نجران للمباهلة فامتنعوا فظهر الحق وبطلت دعواهم الكاذبة الآثمة، فكل كاذب له حظ من اللعنة قلّت أو كثرت.

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

إنّ الذي أخبرناكم به في شأن عيسى ابن مريم هو الصحيح الثابت، والحق القاطع، فهو عبد نبي كريم على الله، أمه مريم وليس له أب، خُلق بكلمة: "كن" وليس كما قال: اليهود: إنه أتى من حرام عليهم لعنة الملك العلام، ولا ما قالت النصارى إنه ابن الله، عليهم غضب الله، بل الصحيح ما في القرآن لا ما قاله الفريقان، فليس هناك إلا إله واحد يستحق العبادة، وهو الله وحده لا عيسى ولا غيره وليس لله صاحبة ولا ولد، بل أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، والله وحده صاحب العزة، فمن عزته أنه تفرد بالجلال وتوحد بالكمال فقهر ما سواه وأعز من والاه، وأذلّ من عاداه، وهو الحكيم وحده، فمن حكمته أنه أحسن لما أبدع، وبهر العقول بما صنع.

﴿٦٣﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

فإن كذبوا هذا الحق الذي أُنْزِل عليك، والصدق الذي أُوحِي إليك من إخلاص التوحيد لله، وعدم الإشراك به، فاعلم أنهم مفسدون؛ لأن من رفض الدليل ورد الحجة وكفر بالبينة فاسد القلب والتصور، والله عالم به سوف يجازيه بما فعل.

﴿٦٤﴾ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

قل - يا محمد - لليهود والنصارى: هلموا نتفق على كلمة عادلة وقضية فاصلة تجمع بيننا وبينكم، وهي أن نوحِّد الله بالعبادة، ولا نشرك معه غيره، ولا يؤلّهَ مخلوق مخلوقًا مثله، ويصرف له شيئًا من العبادة، من الأوثان والشيطان والصلبان، ولا كفعل اليهود في عبادة عزير، والنصارى في عبادة عيسى، ولا في اتخاذ العلماء والعباد أربابًا يحللون ويحرمون من دون الله، فإن امتنعوا عن قبول هذه الدعوة وأبوا إلا الكفر والتكذيب، فقل اشهدوا أيها اليهود والنصارى أننا وحَّدنا الله ولم نشرك به شيئًا، وكفرنا بكل ما يعبد من دونه، وهذه حقيقة الإسلام الذي معناه الاستسلام والانقياد والخضوع لله رب العالمين.

﴿٦٥﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

أيها اليهود والنصارى كيف تدّعون كذبًا وزورًا أن إبراهيم يهودي أو نصراني، والتاريخ يشهد أن إبراهيم قبل اليهودية والنصرانية بأعوام مديدة وقرون عديدة، فلا بالوحي أخذتم ولا بالتاريخ صدقتم، ولا بالعقل حكمتم، فالتوراة نزلت على موسى بعد إبراهيم، والإنجيل على عيسى بعد الخليل فلماذا هذا التحريف والتبديل؟!!

﴿٦٦﴾ ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

أنتم أيها اليهود والنصارى خاصمتم في قضية واضحة لكم وهي قضية عيسى، فقد أدركتموه وعشتم معه، لكن إبراهيم خاصمتم في شأنه وهو قبلكم بقرون لا تعلمون أخباره، ثم تدعون أنه يهودي أو نصراني، فكيف يتكلم الإنسان فيما يجهل؟! وإلا فإبراهيم جاء بالحنيفية السمحة قبل مجيء موسى وعيسى، فلا شأن له باليهود والنصارى، فهم بعده بأزمان، لكن كيف تُقْنِع من أصيب بالخذلان، فالعلم لله وحده؛ لأنه المطلع على كل شيء، أما أنتم فجهلاء أغبياء.

﴿٦٧﴾ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

لم يكن إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا - لتقدمه عليهما - ولكن كان حنيفًا مسلمًا، ولم يكُ من المشركين، كمن قال: عزير ابن الله والمسيح ابن الله.

﴿٦٨﴾ ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

إن أحق الناس باتباع إبراهيم الخليل هو هذا النبي الكريم محمد ﷺ وليس اليهود ولا النصارى، وكذلك من اتبع إبراهيم على الحنيفية السمحة ملة التوحيد من سائر الأمم وأتباع محمد ﷺ إلى قيام الساعة، فكل حنيف مسلم

موحد بريء من الشرك، فهو على دين إبراهيم الذي رضيه الله وأحبه وتولى من دان به، ومن تولاه الله أحسن رعايته وأيّده، وأصلح أموره وأسعده.

٦٩ ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

تمنى فريق من اليهود والنصارى ردَّتكم عن الإسلام وإغواءكم عن طريق الهداية بإثارة الشبه ونشر الفتنة حسدًا لكم على الهداية وبغيًا منهم وإمعانًا في الغواية، ولكن لن يضروكم، فالله تولى أمركم، وسوف يرد كيدهم وضررهم على أنفسهم، فيضاعف لهم العذاب، ويعظم لهم العقاب، لكنهم لا يعلمون سوء ما يفعلون، فعل السفيه الغبي، ولا يدركون خطورة ما يصنعون، تصرف الأحمق الشقي.

٧٠ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى لماذا تكذِّبون محمدًا ﷺ وما أنزل الله عليه من قرآن، وأنتم تعلمون علم اليقين أن ما جاء به حق؛ لأنه مذكور في كتبكم، بُشِّرت به أنبياؤكم، ووجدتم علامات صدقه ظاهرة، وآيات نبوته باهرة، فأنتم ضللتم عن عمد، وكفرتم على قصد.

٧١ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى لم تخلطون الحق بالباطل تلبيسًا للناس ومخادعة، بتحريفكم كلام الله؟ ولماذا تجحدون الحق الثابت لديكم وهو صدق محمد ﷺ؟ فما ظهر من الحق لبستموه، وما سوى ذلك كتمتموه، فأنتم بين تدليس وتلبيس من إبليس، وأنتم متيقنون صدق الرسول محمد ﷺ وصحة ما جاء به.

٧٢ ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وقال بعض علماء اليهود لعامتهم: صدِّقوا بالقرآن وبرسالة محمد ﷺ أول النهار، وارجعوا عن دينكم آخره؛ لأن الناس إذا رأوا ذلك دخلهم الشك في الإسلام فارتدوا عنه؛ لأنهم سوف يقولون: إن اليهود كشفوا خللاً ونقصًا في الإسلام فتركوه، فيتركون هم دين الإسلام، وهذا من مكر اليهود وخبثهم وإيغالهم في الشر والفجور.

٧٣ ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وقالت اليهود بعضهم لبعض: لا تثقوا ولا تصدقوا إلا لمن كان يهوديًا؛ تعصبًا أعمى للباطل، أما غير اليهودي فلا يقبل قوله بل هو متهم عندهم، فأخبر - تعالى - أن الهدى ليس بهواهم ولا على ما أرادوا، بل هو في الدين الإسلامي الصحيح الذي بُعث به محمدٌ ﷺ، وخشي اليهود أن يكرم الله غيرهم بالرسالة، فرفضوا الاعتراف لغيرهم بالحق؛ حسدًا وبغيًا وخوفًا من أن يحتج عليهم المسلمون يوم القيامة إذا أقروا بنبوة محمد ﷺ ثم خالفوه فتآمروا ألا يصدقوا به أصلاً، ولا يجعلوا للمسلمين عليهم طريقًا من الإقرار بنبيّهم، فأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يخبرهم أن النبوّة ليست ملكًا لهم وليست حكرًا عليهم، بل هي فضل بيد الله يعطيها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته؛ لأنه كثير التفضل كريم العطاء، جزيل الهبات، عليم بمن يستحق النبوة والولاية، مطلع على من هو أهل للفضل مستحق للكرامة.

٧٤ ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

والله - تعالى - يجتبي للنبوة ويختار للرسالة من يصلح لها من عباده مثلما شاء سبحانه؛ لأن عطاءه عظيم لا تحده الأوهام، وفضله واسع لا يقدر قدره الأنام، فالنبوة فضل رباني لا لنسب ولا حسب ولا مال ولا جاه، لكنها العناية والرعاية لمن شاء الله له ذلك.

﴿٧٥﴾ ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

في اليهود الأمين والخائن، فالأمين لو ائتمنته على مال كثير رده إليك؛ لما عنده من الضمير والأمانة والورع، وهذا من إنصاف القرآن ومن العدل في الحكم، ومن اليهود الخائن الذي لو ائتمنته على قليل من المال لما ردّه إليك، ولخانك إلا إذا كنت مراقبًا له لا تفارقه، حينها يَخْشاك، وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي لنا التعميم في الأحكام، بل يجب التفصيل حتى لا يُظْلَم أمين ولا يُزَكَّى خائن، والذي يحمل اليهود على خيانة المسلمين أنهم يعتقدون أنه يجوز لليهودي أن يخون غيره، وليس للأميين الذين هم العرب احترام عندهم، ولا لأموالهم قيمة، ولا لأنفسهم عصمة، فحملهم هذا الكذب على استباحة أموال الناس واستحلالها، فكذّب الله - سبحانه - وتعالى قولهم، وأخبر أنهم يعلمون أنهم كذبة، وأنهم مفترون فيما زعموا.

﴿٧٦﴾ ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

وليس الأمر كما زعموا بأنه يُعفى عمن خان في أموال غيرهم، بل الصحيح أن من اتقى الله - سبحانه وتعالى - ووفّى بعهده وراقب مولاه ورد الأمانة إلى أهلها فهذا من التقوى، والله يحب المتقي وهو من يخاف ربه ويراقب مولاه ويخشى إلهه ويحفظ حدوده.

وفي هذه الآية تضمين للرد عليهم أنه ما أصابوا حينما سامحوا أنفسهم في أموال غيرهم، فأخبر الله أن الخائن محاسب معاقب، وأن الأمين مثاب مكرم.

﴿٧٧﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إن هؤلاء اليهود وأمثالهم الذين باعوا دينهم بثمن بخس، وبقيمة رخيصة من حطام الدنيا وجاهها وعرضها الزائل، هؤلاء ليس لهم نصيب عند الله من المغفرة، ولا حظ من الرضوان، وجزاؤهم أن الله يعرض عنهم يوم القيامة غضبًا عليهم ومقتًا لهم وسخطًا عليهم، فلا يكلمهم - سبحانه وتعالى - ولا ينظر إليهم نظر رحمة ولا يطهرهم من ذنوبهم، ولا يخلصهم من دنس معاصيهم، ولهم عند الله - سبحانه وتعالى - عذاب مؤلم لسوء صنيعهم وجرمهم، وعلى ما فعلوه من فساد في الأقوال والأعمال والأحوال والأموال، فهم كذبة في الأقوال مكذبون للرسل، كافرون بالأنبياء، خونة في المال، ناقضون للعهود، فجزاؤهم عند الله ما يستحقونه يوم القيامة.

﴿٧٨﴾ ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

من اليهود طائفة تحرف ألسنتها في قراءة التوراة لتغير مدلول كلام الله - عز وجل - عن مقاصده ومراميه؛ ليتوهم الناس أن هذا الكلام الملتوي المحرّف هو من كلام الله في التوراة، وهذا كذب منهم وبهتان على طريقتهم، فأتوا بخطأين عظيمين: خطأ التبديل والتغيير لكلام الله، وخطأ الكذب والافتراء على الله - عز وجل -، وهذا الكذب الذي افتروه والباطل الذي فعلوه هم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم كذبوا على الله -عز وجل- فهم غيّروا صفات محمد - عليه الصلاة والسلام - وأنكروا سماته في التوراة، وتلاعبوا في الحدود، وقدموا وأخروا في كتاب الله المنزّل، فجزاؤهم غضب من الله - سبحانه وتعالى - وعذاب شديد ينتظرهم، وكل من فعل فعلهم من هذه الأمة من الذين شابهوهم من الفرق الضالة، من الفرق المغضوب عليهم الذين غيروا النص وبدّلوا وحرّفوا في معاني كلام الله، وكلام رسوله ﷺ.

﴿٧٩﴾ ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

ليس لأحد من الناس بعد أن يشرفه الله - سبحانه وتعالى - بالحكمة والنبوة والعلم النافع أن يدعو الناس إلى عبادة شخصه والإشراك به من دون الله - عز وجل - هذا لا يكون أبدًا في الفطر السوية، ولا في العقول الصريحة، ولا النقول الصحيحة، هذا لا يمكن أن يكون، وهذا يدلك على افتراء النصارى على عيسى - عليه السلام - حينما زعموا أنه دعا الناس إلى عبادته، وأنه أمرهم أن يعبدوه من دون الله - عز وجل - إنما أرسله رسولاً وعبدًا له ليدل الناس عليه، ويأمرهم بعبادته وحده - سبحانه وتعالى - وهذا الذي حصل من عيسى فإنه أخلص العبودية لله، وأخلص في دعوة الناس إلى الله، إن هذا الرسول الذي يبعثه الله - سبحانه وتعالى - إنما يدعو الناس إلى طاعة الواحد وإلى تمام العبودية والألوهية لمن أرسله - سبحانه - ويأمر الناس أن يكونوا ربانيين يتعلمون الحكمة التي أنزلها الله على رسله، فيربون أنفسهم بالعلم النافع والعمل الصالح، فمن تعلم العلم وعمل به وعلّمه الناس وصبر على ذلك فهو رباني يُدعى في الملأ الأعلى، وإنما نُسب إلى ربه تشريفًا؛ ولأن أصل العلم من عند رب العالمين، وهذا الأصل في كل مسلم وداعية فضلاً عن الأنبياء والرسل الذين هم أكمل الخلق، فإنهم يدعون الناس إلى أن يكونوا عبادًا حكماء علماء يعلمون الناس الكتاب والحكمة، شكر لله على ما علمهم ودرّسهم وفقههم في الدين.

﴿٨٠﴾ ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

لا يحق لنبي كائنًا من كان أن يدعو الناس إلى عبادة الملائكة من دون الله أو الأنبياء واتخاذهم أربابًا يَصرف لهم شيئًا من العبودية، وشيئًا من معالم الألوهية، كيف يفعل النبي هذا الفعل والله إنما أرسله لإصلاح الناس وردهم إلى ربهم وإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان؟! أيمكن أن يأمر النبي الناس بالإشراك بالله بعد أن وحّدوه - سبحانه وتعالى - وألّهوه وأخلصوا له العبودية؟ هل يصح من رسول شرَّفه الله - سبحانه وتعالى - برسالة التوحيد أن يغوي الناس وأن يضلهم وأن يصرفهم عن عبادة الله؟ وهذه هي دعوى النصارى - قاتلهم الله - فإنهم زعموا أن عيسى إنما دعاهم لعبادته وعبادة أمه، وهذه فرية عظيمة وكذبة وخيمة قاتلهم الله أنَّى يؤفكون.

﴿٨١﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

واذكروا -أيها اليهود والنصارى- يوم أن أخذ الله ميثاق المرسلين وألزمهم بالعهد المؤكد من أجل ما وهبهم الله - سبحانه وتعالى- من الكتاب المنزل والحكمة المؤيدة من عنده، هذا العهد أنه إذا بعث رسولاً بعدهم من عنده - سبحانه - وهذا الرسول يصدق ما عندهم ليصدِّقنّه هؤلاء الأنبياء ولينصرنّه، فالله - سبحانه وتعالى - ما بعث نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمدًا وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنّه، وأمره بأخذ الميثاق على أمته فسألهم - سبحانه وتعالى - هل اعترفتم؟ هل آمنتم بهذا العهد؟ هل ذكرتم هذا الميثاق؟ هل قمتم بلوازم هذا اليمين؟ قالوا: اعترفنا، فلما اعترفوا أمر الله - سبحانه وتعالى - بعضهم أن يشهد على بعض، فإذا شهد بعضهم على بعض فالله - سبحانه وتعالى - معهم من الشاهدين على هذا الإقرار العظيم، وملخصه أن عليهم أن يؤمنوا بالرسول الخاتم ﷺ الذي بُعِثَ مصدقًا لما قبله ﷺ.

﴿٨٢﴾ ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

فمن نكث هذا الميثاق ونقض هذا العهد منكم أيها اليهود والنصارى بعدما أقررتم على أنفسكم، وبعدما شهد بعضكم على بعض فمن أعرض من بعد ذلك فهذا خارج عن طاعة الله، كاذب خائن، وهذا الميثاق هو ميثاق مقدس عظيم،

وهو شرف لرسولنا الكريم ﷺ، وهو شهادة من الواحد الأحد برسالته قبل أن يبعثه احتفاءً بهذه النبوة، وتقديمًا لها وإشهارًا لمكانته - عليه الصلاة والسلام - عند جميع الأمم.

﴿٨٣﴾ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

أيبحث اليهود والنصارى عن دين آخر غير هذا الدين الحق دين الإسلام؟ أيريدون منهجًا غير منهج الله الذي رضيه لأنبيائه وعباده الصالحين؟ لماذا لا يتبعون منهج الله - سبحانه وتعالى - الذي رضيه؟ والله - سبحانه وتعالى - عظيم قد انقاد له وخشع كل مَنْ في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن وأقبلوا إليه مسلِّمين مذعنين إما عن طاعة وحب، وإما عن قهر وإجبار، فالكل منقاد له - سبحانه وتعالى - وطائع وذليل، فما يحق لهؤلاء المنحرفين عن منهج الله إلا أن يدخلوا فيما دخل فيه الخلائق من الاستسلام للواحد الأحد، فمرجعهم إليه يوم العرض الأكبر، يجازيهم بأفعالهم ويحاسبهم بأقوالهم وأعمالهم، وهو مطلع على أحوالهم لا رب سواه ولا نعبد إلا إياه.

﴿٨٤﴾ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾

قل - يا محمد - أنت والمؤمنون معك: صدّقنا بوحدانية الله، وآمنا بألوهية ربنا - سبحانه وتعالى - واعترفنا بربوبيته وأسمائه وصفاته، وآمنا بما أنزل الله على أنبيائه المرسلين المصطفين المذكورين في الآية، وصَدَّقْنا بما نَزَّل الله - عز وجل - من التوراة على موسى والإنجيل على عيسى؛ لأن موسى وعيسى أعظم أنبياء بني إسرائيل، وهما من أولي العزم، ونحن أيها المؤمنون نؤمن بجميع المرسلين، ولسنا كاليهود الذين آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، ولا كالنصارى الذين آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد وموسى، ولكننا آمنا بالجميع، لا نفرق بين أحد منهم، فكلهم مرسلون صادقون أنبياء كرام، وإقرارنا هذا لله - سبحانه وتعالى - بالألوهية وبالعبودية وبالربوبية، هذا هو الدين الصحيح، وهو دين الإسلام الذي جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فنحن المسلمون حقًا، ونحن المصيبون صدقًا، وأما غيرنا فبدلوا وغيروا وحرّفوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ألَّهوا بعض الأنبياء وقتلوا بعض الأنبياء، ونحن آمنا بالجميع، وصدقنا الجميع، والحمد لله رب العالمين.

﴿٨٥﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

من يُرِدْ دينًا غير هذا الدين الذي بُعث به محمد ﷺ وهو دين الإسلام فلن يقبل الله دينه ولا طاعته ولا عبادته بعد مبعث الرسول - عليه الصلاة والسلام - نُسخت كل الأديان وبطلت بدينه وبرسالته، وهذه الآية ردٌ على من افترى على الله، وكذب على دينه وادعى أن اليهود والنصارى إذا كانوا على ديانتهم ولم يعتنقوا الإسلام أنهم مصيبون؛ لأنهم تمسكوا بما عليه أنبياؤهم، وهذه كذبة عظيمة تردها الآية، ونشهد الله - عز وجل - على أن الله لا يقبل بعد مبعث الرسول ﷺ من العبد إلا دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية ولا غيرها من الأديان، فالإسلام دينه المرتضى، وصراطه السوي، وطريقته المثلى.

﴿٨٦﴾ ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

كيف يكون على هدى ويكون مصيبًا من كذب خاتم النبيين محمدًا ﷺ بعد أن علم أن رسالته حق، وبعد أن شهد أن ما جاء به من عند الله حق، وبعدما وجد وصفه ﷺ موجودًا في التوراة والإنجيل، مثل هذا كيف يهتدي؟ كيف يُسَدَّدُ؟ إن الذي يفعل هذا الأمر بعد أن يستبين له الحق جدير بأن يضله الله - سبحانه وتعالى - ولا يقبل منه صرفًا ولا عدلاً يوم القيامة؛ لأنه ظالم، حرّف الأدلة، ورد الحجة، وتنكب المحجة، والله لا يهدي من هذا شأنه في الظلم

والطغيان والبغي، وهذا هو فعل اليهود والنصارى بعد مبعثه ﷺ، فقد تبين لهم الحق وظهرت لهم الأدلة، وبانت لهم البراهين ثم رفضوا ذلك كله.

﴿٨٧﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

هؤلاء الذين فعلوا هذا الفعل وكذبوا محمدًا ﷺ بعد ما بان لهم الحق، فهؤلاء كفار أشرار جزاؤهم عند ربهم - سبحانه وتعالى - لعنة ماحقة ساحقة محرقة، يلعنهم الله بها فيطردهم من رحمته، وتلعنهم الملائكة والناس أجمعين، المهتدي والضال، الصالح والطالح؛ لأنهم كتموا شهادة عندهم من الله؛ ولأنهم نكثوا عهد الله؛ ولأنهم حاربوا رسول الله، وردوا الحجة البينة من الله.

﴿٨٨﴾ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

فجزاء هؤلاء أن يبقوا معذبين أبد الآبدين في نار جهنم، ولا يُخَفِّفُ الله عذابهم ولا يرفع عقابهم، ولا يشفع فيهم شفيع، ولا يدافع عنهم مدافع، ولا ينصرهم ناصر؛ لأنهم جاهروا الله بالعداوة وكفروا عن قصد، وكذبوا عن عمد، ورفضوا الهداية التي بُعث بها نبي الله ﷺ.

﴿٨٩﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لكن من عاد إلى الله - سبحانه وتعالى - ورجع إلى الحق وآمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - وكفر بما يُعبد من دون الله - عز وجل - واهتدى بالنور الذي بُعث به ﷺ واتبع سنته واهتدى بهديه فهؤلاء يغفر الله ذنوبهم، ويستر عيوبهم، ويتجاوز عن أخطائهم، ويعفو عن سيئاتهم، فإنه - سبحانه وتعالى - كثير المغفرة، واسع الرحمة، لا يتعاظمه شيء، وهذا فتح باب التوبة لمن فعل الفعل الشنيع، والعمل الفظيع، فكيف بغيره ممن هو أقل منه من أهل الكبائر وأهل المعاصي، وهذا فيه رجاء كبير من رحمة أرحم الراحمين.

﴿٩٠﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾

إن اليهود الذين كفروا بعيسى بعد أن آمنوا بموسى ثم ازدادوا طغيانًا وعتوًا فكفروا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - هؤلاء زادوا شرًا إلى شر، وفجورًا إلى فجور، هؤلاء الخونة المعرضون الناكثون لعهد الله لا يقبل الله - سبحانه وتعالى - توبتهم؛ لأنهم لا يتوبون إلا عند الموت ولا يغفر ذنوبهم، ولا يتجاوز عنهم؛ لأنهم ضلوا وأضلوا، وصدوا عن سبيل الله - عز وجل - وأغرقوا في الكفر وأمعنوا في الضلال وأكثروا من الفساد.

﴿٩١﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

الذين كفروا بالله وكذبوا رسله واستمروا على ذلك حتى ماتوا ولم يسلموا، هؤلاء لو أتوا يوم القيامة بما يعادل الأرض ذهبًا وجعلوه فديةً لهم من عذاب النار، لن يقبل الله - سبحانه وتعالى - منهم هذه الفدية، ولن يخرجهم من النار، بل لهم عذابٌ أليم موجع، خالدين مخلدين في النار، ليس لهم نصير يدفع عنهم العذاب، ولا ولي يجلب لهم الثواب، وإنما هم في أشد النكال، جزاء لما فعلوا واقترفوا.

﴿٩٢﴾ ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

لن تصلوا إلى أفضل الأعمال وأعظم الأحوال حتى تتصدقوا من أفضل أموالكم وأحبها إلى نفوسكم وأغلاها وأنفسها وتؤثرون ما لله - عز وجل - على ما لأنفسكم، وتختارون في الصدقة ما تصطفون لأنفسكم، فتجعلونه لوجه الله، حينها تحظون بالأجر الجزيل، والثناء الجميل، والله - سبحانه وتعالى - يعلم النيات، ويطلع على الخفيات، فيعلم من تصدق لوجهه، ومن أنفق رياءً وسمعة، فلا يضيع عمل عامل.

﴿٩٣﴾ ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

كل الأطعمة كانت حلالاً لليهود إلا لحوم الإبل وألبانها، فإنها كانت محرمة على يعقوب حرمها على نفسه، فحرمت عليهم تلك الأطعمة نكالاً من الله - سبحانه وتعالى - وعقوبةً لهم؛ لأنهم قتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، ونقضوا العهد والميثاق، وحاربوا الله - سبحانه وتعالى - وأولياءه، فحرمهم - سبحانه وتعالى - من بعض الأطعمة، ثم أمر الله - سبحانه وتعالى - الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقول لليهود: تعالوا بالتوراة فاقرؤوا عليّ ما ادعيتموه من كذب أن الله - سبحانه - حرم على إبراهيم لحوم الإبل وألبانها؛ لأنكم افتريتم عليه وكذبتم، فلما طالبهم أن يخرجوا من التوراة التحريم الذي زعموه انهزموا وانقلبوا صاغرين، ولم يستطع عالم منهم أن يخرج شيئًا من التوراة يؤيد ما ذهبوا إليه من الكذب، وفيه دليل على صدق النبيّ ﷺ.

﴿٩٤﴾ ﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

فمن أتى بالكذب من بعد ظهور الدليل، وقيام الحجة، وصدق الرسول ﷺ؛ من بعد أن ظهر كذبه هو بما ادعاه أن التحريم كان على الرسل السابقين، وليس بسبب عصيان اليهود ولا بنقضهم الميثاق، فمن قال هذا القول فهو مفترٍ على الله - سبحانه وتعالى - كاذب في دعواه، ومن حرّف الكلم وغير المعاني فإنه ظالم لا ينصف، ولا يلتفت إلى البينات، والظالم حظه العذاب، وجزاؤه النكال.

﴿٩٥﴾ ﴿ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

قل - يا محمد - لليهود والنصارى: صدق الله فيما قال وأنزل وكذبتم - أنتم أيها النصارى - في دعواكم أن إبراهيم كان نصرانيًا، وكذبتم أنتم أيها اليهود في دعواكم أن إبراهيم كان يهوديًا، فليس يهوديّاً ولا نصرانيًا، ولم يكن مشركًا، بل كان حنيفًا مسلمًا موحدًا، وهذا هو الدين الذي رضيه - سبحانه وتعالى - والذي دعا إليه رسول الهدى محمد ﷺ.

﴿٩٦﴾ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

أول مسجد أُقيم في الدنيا هو المسجد الحرام الذي بناه الخليل إبراهيم، وهذا المسجد مباركٌ، فهو كثير الخير، واسع الرزق؛ لما يُجبى إليه من الثمرات، ولما يُقام فيه من التجارة والخير العظيم، وفيه أيضًا فوزٌ في الآخرة لما يحصل فيه من عبادة من صلاة واعتكاف، وحج وعمرة، وذكر لله - عز وجل -، وفيه خير الدنيا وخير الآخرة وفي الصحيح أن «المسجد الحرام وضع قبل بيت المقدس بأربعين سنة».

﴿٩٧﴾ ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

في هذا المسجد العظيم علامات واضحات على فضله وشرفه وقدسيته؛ كالكعبة المشرفة، والحجر الأسود، والصفا والمروة، وزمزم وحجر إسماعيل ونحو ذلك من تلك المعالم العظيمة الجليلة، والله - سبحانه - أوجب على الناس من استطاع منهم أن يحج هذا البيت العتيق وهذا من أركان دينه القويم، ومن ترك الحج وهو قادر على الحج فإن الله - سبحانه وتعالى - غنيٌّ عن عبادته، وليس - سبحانه وتعالى - محتاجًا إلى من أعرض من خلقه وأدبر من عباده، وغلّظ - سبحانه وتعالى - الكفر هنا إما أن ترك الحج مع الاستطاعة يؤدي إلى الكفر، أو أن من جحد هذا الركن كفر، وهذا البيت نوه الله بشرفه بأول مساجد الدنيا وبالآيات البينات والعلامات الظاهرات، وبأن جعله -سبحانه وتعالى - أمانًا لمن دخله.

٩٨ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾

قل - يا محمد - لليهود وللنصارى: لماذا تكذبون بالقرآن وتكفرون برسالتي وقد قامت الدلائل البينة والحجج القاطعة على صدقي فيما أتيت به، والله - سبحانه وتعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم، ومن تكذيبكم، فهو - سبحانه وتعالى - شاهد على ما أرسلني به وشاهد على ما فعلتم وعلى ما كذبتم، وسوف يجازيكم بسوء صنيعكم وفظاعة جرمكم إذا عدتم إليه يوم القيامة.

٩٩ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

أيها اليهود والنصارى لماذا تصرفون الناس عن الهداية إلى الإسلام؟ ولماذا تشككون في دين الله - سبحانه وتعالى - الذي بعث به محمدًا ﷺ؟ ولماذا تورثون الناس الشبهة وتلقون الكلام المحتمل وتريدون من الناس الانحراف بعد أن دعاهم الله - سبحانه وتعالى - إلى إجابة رسوله ﷺ وأنتم تعلمون حق العلم أن محمدًا ﷺ صادق، وأن دينه حق، وأنه رسول من عند الله، والله - سبحانه وتعالى - لن يترك هذا لكم ولن ينساه، فسوف يجازيكم بهذا الصنيع؛ لأنكم جمعتم بين الضلال في أنفسكم وإضلال العالم.

١٠٠ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾

يا من آمن واتبع محمدًا واهتدى بهداه، إنكم إن أطعتم طائفة من اليهود والنصارى صرفوكم عن دينكم بشبههم وبإغوائهم، فتقعون في الكفر بعد أن منَّ الله عليكم بالإسلام وأنتم لا تشعرون، إذًا فلا تُصْغُوا إليهم ولا تسمعوا لكلامهم ولا تقبلوا شبههم، فإنهم أعداء لكم يريدون أن تتحولوا عن دينكم الذي أكرمكم الله به بغيًا وحسدًا من عند أنفسهم.

١٠١ ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

فكيف تَرْتَدُّون - أيها المؤمنون - عن الإسلام والقرآن يُتلى عليكم بآياته البينات، وبمعجزاته الظاهرات، وفيكم رسول الهدى محمد ﷺ وقد ظهر صدقه، وبانت صحة دعواه، وبانت صحة رسالته، فاعتصموا بالله - سبحانه وتعالى - فإنه من يلتجئ إلى ربه ويفوض الأمر إليه، ويثق به، كفاه عما سواه، وهداه صراطًا سويًا وطريقًا قويمًا لا عوج فيه، وأسعده في الدنيا والآخرة. وفي الآية دليل على أن العبد لا يأمن الفتنة مهما بلغ في التقوى، وأن عليه أن يتزود من الطاعات وأن يكثر من العبادات، وأن يلتجئ بالدعاء في وقت الفتن والمحن، وفيها أنَ من جعل الله له ملاذًا عند الشبهات حفظه منها.

١٠٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أيها المؤمنون، يا من صدق بالله واتبع رسوله الكريم، عليكم بتقوى الله - عز وجل - بفعل المأمور واجتناب المحظور، وعبادته حق العبادة بأن تطيعوه فلا تعصوه، وتذكروه فلا تنسوه، وتشكروه فلا تكفروه، واحذروا أن تموتوا على غير الإسلام، فإن الإسلام هو الدين الذي رضيه - سبحانه وتعالى - لعباده، ومن اتقى الله - سبحانه وتعالى - وأصلح نيته وأخلص عمله، ثبته الله سبحانه وتعالى، فأماته مسلمًا، وهي الأمنية الغالية، والمطلب العظيم الذي يسعى إليه أولياء الله وعباده الصادقون.

١٠٣ ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

واستمسكوا بالإسلام والقرآن وباتباع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولا تختلفوا كما اختلف الذين من قبلكم من اليهود والنصارى، وتذكروا نعمة الله عليكم لما أخرجكم من الكفر إلى الإيمان، ومن الظلمات إلى النور، وهداكم صراطًا سويًا، وجمع قلوبكم على الخير، وألف بين أرواحكم بعدما كنتم متباغضين متناحرين، يقتل بعضكم بعضًا،

ويحارب بعضكم بعضًا، فأصبحتم كالأسرة الواحدة، بل أكثر في الأخوَّة من الإخوة في النسب، فصرتم يدًا على من سواكم، وصار أدناكم يسعى بذمة أعلاكم، وصار أكرمكم عند الله أتقاكم، وكنتم قبل ذلك على طرف خطر وهاوية من الفتن والبغي، ومن الضلال والغي، فأخرجكم - سبحانه وتعالى - من تلك الجاهلية وأعد لكم دينًا قويمًا وهداكم صراطًا مستقيمًا، ووفقكم إلى اتباع محمد ﷺ فأنتم كمثل من كان واقفًا على رأس حفرة عظيمة تشتعل نارًا يكاد يسقط فيها فهذا مثل من كان كافرًا ثم أنقذه الله - سبحانه وتعالى - وبهذه الأمثلة ونحوها من الحجج يبين الله لكم - سبحانه وتعالى - الأدلة والبراهين، ويورد عليكم من الآيات ما فيه هدايتكم، وفيه دليل على أن الاطلاع على نصوص الكتاب والسنة يزيد في الإيمان، ويعظم الهداية واليقين عند العبد.

﴿ ١٠٤ ﴾ ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

وعليكم أن تُخَصِّصوا طائفة منكم من أهل العلم والفضل والإحسان للدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - وتعليم الناس ما ينفعهم في أمر دينهم ودنياهم، فيأمروا الناس بكل معروف نصَّ عليه الشرع، وتعارف عليه العقلاء من الفضائل والآداب والأخلاق والسلوك، وينهوا عن كل منكر حرَّمه الله - سبحانه وتعالى - ورسوله، وما استقبحه أهل الفطرة والفضلاء، ومن يقمْ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محتسبًا، ويكون حسن الطريقة في الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - لينًا رفيقًا، ينلْ أعظم المطالب، ويفزْ بأحسن المراتب، فجزاؤه النجاة في الآخرة، والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى.

﴿ ١٠٥ ﴾ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

احذروا - أيها المؤمنون - أن تكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في أقوالهم واختلفوا في قلوبهم من بعد ما جاءتهم الرسل، ونزلت عليهم الكتب فضلّوا على بصيرة، وغووا عن عمد، فجزاء أولئك عذاب عظيم عند الله - سبحانه وتعالى - من الخلود في النار، وغضب الجبار.

﴿ ١٠٦ ﴾ ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

وتذكروا - أيها المؤمنون - يوم يُبَيِّضُ الله وجوه من آمن به، وصدّق رسله، فتظهر عليها البهجة والسرور والفرح، ويسوّد الله - سبحانه وتعالى - وجوه من كفر به، وكذب رسله، فيظهر عليها الأسف والكآبة والندامة، والخزي والعار، ويُوبخ الكفار في تلك الدار، فيقال لهم ما لكم كفرتم بعد الآيات البينات؟ وما لكم ارتددتم بعد ظهور الحجج الواضحات؟ الآن تذوقون العذاب الأليم، والعقاب الشديد؛ جزاءً على فعلكم الآثم، وعلى جرائمكم الكبيرة؛ لأنكم عصيتم الله - سبحانه وتعالى - بعد أن ظهر لكم البيان، وسطع لكم البرهان، فذوقوا الخزي والهوان، والنكال والخسران.

﴿ ١٠٧ ﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وأما من ظفر بالسعادة من أهل العبادة فهؤلاء لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وهم في رحمة الله ورحمة الله دائمة لا تنقطع؛ لأنها صفة من صفاته، فهم في الجنة مكرمون، في حبور وسرور ونور، في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم، ولا يدركهم الهرم ولا العدم ولا السقم؛ جزاءً لعملهم البار في طاعة العزيز الغفار.

﴿ ١٠٨ ﴾ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾

هذا الكتاب المنزّل عليك - يا محمد - نزل بالحق، وأتى بالصدق؛ ليهدي به الله من يشاء من عباده، فيبين لهم الحق ليتبعوه، والباطل ليجتنبوه، والله - سبحانه وتعالى - أقام الحجة وأوضح المحجة، وبين وأعذر إلى الناس لئلا يَغْوي غاوٍ بلا برهان، ولئلا يَضِلّ ضالّ بلا دليل، فالله أرسل الرسول وأنزل الكتاب؛ لبيان الدليل للناس؛ لأنه - سبحانه وتعالى - لا يريد أن يظلم أحدًا من الناس، والظلم أن يعذب أحدًا بلا ذنب، والله منزّه عن ذلك، وليس هو سبحانه بظلاّم للعبيد.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

كل ما في الكون من خلق بما فيها الملائكة والإنس والجن وما يدب على ظهر الأرض، ملك لله الواحد الأحد، لا ينازعه في ملكه أحد، يتصرف في خلقه كيف يشاء، لا خالق ولا رازق ولا إله ولا معبود بحق إلا هو، ومن عدله - سبحانه وتعالى - أنه بيّن الشريعة، ووضّح الطريق، وإليه - سبحانه - تعود الأمور، وينتهي الناس إليه، ومصير الخلائق عنده - جل في علاه - فيقيم يوم الدين فيثيب المحسنين ويعاقب الظالمين.

﴿١١٠﴾ ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

أنتم - أيتها الأمة المحمدية - أفضل الأمم عند الله - سبحانه وتعالى - فلا توجد أمة تفضلكم؛ لأنكم تأمرون بكل خير وتنهون عن كل منكر بعدما آمنتم بالله وصدقتم رسوله، فأنتم أمة الشهادة على الناس، وأمة إقامة الحجة على العالم، وأمة الدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - وأما أهل الكتاب فلو أنهم صدَّقوا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - لأسعدهم الله في الدنيا والآخرة، ولأنجاهم من غضبه، ومن أليم عقابه، ولكن لم يصدق منهم إلا القليل؛ كعبد الله بن سلام، والنجاشي، وأما الكثير فقد استحبوا العمى على الهدى، وخرجوا عن طاعة الله، وحاربوا أولياءه، وتمردوا على شرعه.

﴿١١١﴾ ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾

لا يستطيع أعداؤكم من اليهود وغيرهم إدخال الضرر على المؤمنين؛ لأن الله يحميهم ويتولاهم، إلا أذى يسيرًا يكفِّر الله به من سيئاتهم، كأذى الكلام والتهديد والوعيد والسب والشتم ونحو ذلك، ولكن لو حصلت المقاتلة والمنازلة في الميدان، فإن الله ينصر أولياءه من أهل الإيمان، ويجعل العاقبة لهم، وأما الكفار فيلقي الرعب في قلوبهم، وينزل الهزيمة بهم، ثم يفرون من ساحة القتال، ومن أرض الجهاد، فليس لهم عند الله نصر ولا عزة في الدنيا ولا نجاة في الآخرة.

﴿١١٢﴾ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

هؤلاء اليهود ضرب الله - عز وجل - عليهم الذل والهوان والحقارة والخسة، فأينما وجُدوا فهم مغلوبون مهزومون مهما انتصروا في بعض الجولات على المؤمنين، ولا يمكن أن يُعصَموا من هذا الذل والهزيمة إلا بعهد يعقدونه بينهم وبين الناس، فيبقون آمنين ما استمر هذا العهد، وهؤلاء اليهود قد رجعوا بغضب شديد من الله - سبحانه وتعالى - ولعنة وخزي بسبب ما فعلوه من نقض الميثاق، وقتل الأنبياء وتكذيب الرسل والعصيان والتحريف في الكتاب والتبديل في النصوص، والله - سبحانه وتعالى - أصابهم بالفقر النفسي والإحباط وخسة الهمم وسخف العزائم، فلا تلقى اليهودي إلا ذليلاً في داخله، يعبد المال ويكدس القناطير المقنطرة ويريد الحياة الدنيا؛ لأنهم كانوا يكذبون بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله - سبحانه وتعالى - بغير حق، وأكثروا من العصيان، فهم عصوا الله - سبحانه وتعالى - في ترك الأوامر واعتدوا بترك النواهي، وتولوا الشيطان وحاربوا الرحمن.

﴿١١٣﴾ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا على طريقة واحدة وعلى مستوىً واحد، فمنهم المؤمن الذي آمن بمحمد ﷺ بعدما بُعث واستقام على أمر الله، وتلا كتابه - سبحانه وتعالى - بالليل قائمًا، وأكثر من عبادة ربه واتقى مولاه.

﴿١١٤﴾ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وهؤلاء يؤمنون بالله - سبحانه - وتعالى إيمانًا صادقًا، فيوحدونه بالعبودية، ويفردونه بالألوهية، ويؤمنون باليوم الآخر وما جاء فيه، ويصدقون أنه الحق من عند الله - عز وجل - ويأمرون بكل خير وهدى ورشد، وينهون عن كل شر وردىً وغي، فهم صالحون في أنفسهم، مصلحون لغيرهم، وهم يتسابقون إلى فعل الصالحات، ونوافل العبادات، والأفعال الجميلة والأخلاق النبيلة من كلمة طيبة، وتواضع وجود، ونصر للمظلوم، وإعطاء للفقير، ورحمةٍ لليتيم، وبر للوالدين، وصلة للرحم ونحوها، فهؤلاء حقيقةً هم الفائزون برضوان الله، الناجون من غضب الله، المحظوظون بجوار الله الذين صلحت أحوالهم عند الله.

﴿١١٥﴾ ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

وليطمئن هؤلاء البررة الأخيار بأن ما فعلوه من صلاح وما قدموه من بر، لن يضيع عند الله - سبحانه وتعالى - بل هو محسوب ومدخر لهم، يثابون عليه أعظم الثواب، ويُجازون عليه أحسن الجزاء، والله - سبحانه وتعالى - عالم بمن اتقى وأراده بالعمل وصدق في نيته واجتنب الرياء والسمعة، فمدار الأعمال على تقواه تعالى، بحيث تفعل الطاعة على تقوى منه، وتترك المعصية على تقوى منه.

﴿١١٦﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

كل كافر لن ينفعه ما جمع من مال، ولا ما ربّى من أبناء، فمهما افتخر بأنه أكثر الناس أموالاً وأولادًا، وأن هذا يَصْرف عنه العذاب، ويناله الثواب، فإن هذا من الخطأ العظيم، بل لا ينفع الإنسان إلا إيمانه وعمله الصالح، وهؤلاء الذين ادعوا هذه الدعوى هم من أهل الكتاب والمشركين، فكذَّبهم - سبحانه وتعالى - وأخبر أن هذه الأمور لا تنفعهم شيئًا عند الله، فلا ينالون بها فوزًا ولا ينجون بها من خزي؛ لأنهم خالدون مخلدون في النار لما اقترفوه من غضب الجبار.

﴿١١٧﴾ ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

مثل ما أعطوا من الأموال وما صرفوه في سبيل الظهور والشهرة، وحب التصدر عند الناس؛ كمثل قوم زرعوا زرعًا وأجهدوا أنفسهم في استصلاحه، فلما نما الزرع وأقبل الثمر، أرسل الله عليه ريحًا عاصفةً قويةً فيها برد مُهْلِك فأحرقت هذه الزروع وأبادت هذه الثمار، فهؤلاء جمعوا أعمالاً كثيرة، وأنفقوا أموالاً وفيرة، ولكن أرادوا غير الله، وأشركوا مع الله - سبحانه وتعالى - غيره، فمحق الله أعمالهم، وأبطل سعيهم، وما ظلمهم الله ولكن هم استوجبوا هذا الجزاء بكفرهم بربهم وشركهم بمولاهم وإرادة غيره بالعمل ومحاربة أوليائه، فإن الله - سبحانه وتعالى - لا يظلم أحدًا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

﴿١١٨﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

أيها المؤمنون لا تقرِّبوا المنافقين منكم، وتجعلوا لهم من المكانة والموالاة والمودة والقرب مثل اتخاذ الثوب قربًا والتصاقًا، فهؤلاء المنافقون لا يقصرون في الإفساد والإيذاء، والسعي بالفتنة وتفريق الصف، بل هم مجتهدون في الفساد والإفساد، وهم يتمنون ما يشق عليكم، ويودون هزيمتكم وإيذاءكم، وقد حصلت منهم أفعالٌ قبيحة بدت في كلماتهم من التشفي والاستهزاء والهمز واللمز والسخرية، فكيف تثقون بهم بعدما ظهرت لكم هذه العلامات، وقامت

لكم هذه الدلائل من فلتات ألسنتهم، فكيف بما في صدورهم من الحقد عليكم والحسد لكم، والبغضاء لدينكم، ونية الشر لجماعتكم، ونحن بيّنا لكم هذه الأشياء لتجتنبوها وتكونوا على حذر من مكر هؤلاء المنافقين، فهم أخطر من الكفار الظاهرين، وإذا كانت لكم عقول تفكر، وأفئدة تَتَبَصَّر، فاحذروا هذا الداء الدوي من موالاة المنافق، والرضا به والركون إليه والثقة به واتخاذهم في المناصب وفي الاستشارات، وإظهار الحب لهم والثقة بهم، وهذا أمر محرم عليكم؛ لأنهم أعداء الله ولا يجوز موالاة أعدائه.

﴿١١٩﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

ما لكم أيها المؤمنون تخطئون في محبة هؤلاء وهم أعداء الله وهم لا يحبونكم ويكفرون بشرع الله، آمنتم أنتم برسولهم وبكتابهم وهم كفروا برسولكم وبكتابكم، إذا حضروا عندكم أظهروا لكم الإيمان والتصديق لكم والمتابعة، وإذا انفرد بعضهم ببعض أظهروا الغضب الشديد، والمكر الأكيد، والحقد عليكم وعلى دينكم، وتمنوا زوال النعمة التي نزلت عليكم، وخططوا لأذاكم، والله - سبحانه وتعالى - يعلم ما تُكِنُّ صدورهم وما تخفي ضمائرهم وما تستتر عليه سرائرهم، وسوف يجازيهم بصنيعهم، وهذا فيه أن على المؤمن أن لا يوالي الكافر مهما أظهر له من المودة إلاّ ولاءً ظاهرا، فلا يتخذه خليلاً ولا صفيًا، ولا يثق بمودته ولا بصداقته، ولا يوالي إلا أولياء الله - سبحانه وتعالى - الذين صدقوا برسوله واتبعوا كتابه.

﴿١٢٠﴾ ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

وهؤلاء الأعداء إذا نزل بكم خير من نصر وعزة وتوفيق ورخاء وغيث وخصب ورزق واسع وصحة في الأجسام، ساءهم ذلك وأقلقهم وغاظهم؛ لأنهم أعداء حسدة، وإذا حلّت بكم نكبة أو وقعت بكم ملمّة أو أصابكم مرض أو فقر أو هزيمة فرحوا بذلك وسرَّهم ما ساءكم، وأفرحهم ما أزعجكم، وأنتم إذا صبرتم على عداوتهم وكففتم عن صداقتهم فلن يضركم كيدهم ولا يصل إليكم من مكرهم شيء، فالله مبطل كيدهم محبط عملهم متبّرٌ سعيهم، وهو - سبحانه وتعالى - غَالب من غَالَبَه، وهو عالم - سبحانه وتعالى - بكل ما أسروا وكل ما أخفوا من المكايد، وكل ما دبروا من المؤامرات، وسوف يكشف أسرارهم ويهتك أستارهم.

﴿١٢١﴾ ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

واذكر - يا محمد - تلك الغزوة العظيمة غزوة أحد يوم خرجت من منزلك تصفُّ المؤمنين للقتال في سبيل الله، وتنزلهم في مواقف القتال وتُهيئهم لمبارزة الكفار، والله سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون، لا تخفى عليه خافية، يعرف الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر، والمخلص من المنافق.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

واذكروا حين كادت بنو سلمة وبنو حارثة - وهما بطنان من الأنصار - أن ينخذلا مع عبد الله بن أبّي بن سلول، ويتركا القتال مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولكن الله - سبحانه وتعالى - تولى أمرهم، وجمع شملهم وعصمهم وثبت أقدامهم، وردهم إلى الخير، وعلى الله - سبحانه وتعالى - فلْيَعْتَمِدْ في الشدائد من أراد النصر، وبالله فليثقْ من أراد الخير، فإنه - سبحانه وتعالى - نعم المولى ونعم النصير والمعين والظهير - جل في علاه - والذي حصل لبني سلمة وبني حارثة حديث نفس وخطرات من الشيطان بالانهزام والفَرار من أرض المعركة، ولكن الله أيدهم بكلمة ثابتة فثبتوا.

﴿١٢٣﴾ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وتذكروا - أيها المؤمنون - غزوة بدر وكيف نصركم الله - سبحانه وتعالى - في تلك الغزوة وأنتم في قلة من العدد، وفي فَقْرٍ من ذات اليد، وفي ضَعْفٍ من الحال، وكان الكفار قرابة الألف وأنتم ثلاث مئة وخمسة عشر مقاتلاً، فأنزل الله الملائكة معكم وأيدكم بنصره، وأنزل عليكم السكينة، وثبت أقدامكم ونصركم على أعدائكم وجعل الفوز والفلاح معكم، فاتقوا الله - سبحانه وتعالى - باتباع رسوله والاهتداء بكتابه واجتماع الشمل على طاعته، لعلكم بتقواكم تؤدون شكر نعمته عليكم بالنصر والتأييد.

﴿١٢٤﴾ ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾

واذكروا إذ يقول الرسول ﷺ لأصحابه في بدر: أما يكفيكم أن يؤيدكم الله - سبحانه وتعالى - بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلهم من السماء ينصرونكم ويعينونكم على أعدائه، وهذا مدد عظيم من الملك الكريم.

﴿١٢٥﴾ ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

نعم، هذا العدد - وهو ثلاثة آلاف من الملائكة - يكفيكم إذا اتقيتم الله - سبحانه وتعالى - وثبتم في القتال وصبرتم على مشقة الجهاد، فإذا جاءكم أعداؤكم في هذه الساعة وقد ظهر منكم الصبر والثبات، فإن الله - سبحانه وتعالى - سوف يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة؛ معلَّمين على صنوف القتال، مدربين على مبارزة الرجال، لهم علامات يُعرفون بها، ولهم شارات يتميزون بها ومن شكر الله زاده الله.

﴿١٢٦﴾ ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

وما جعل الله - سبحانه وتعالى - إنزال الملائكة من السماء عليكم إلا بشارةً لكم بالنصر والعز، وتثبيتًا لكم على الإيمان، وإعانة لكم على أعدائه، ولتثقوا في موعود الله - جل في علاه - وليس النصر موقوفًا عليكم ولا على الملائكة، فإن الناصر هو الله وحده سبحانه وتعالى؛ لأنه عزيز حكيم، عزَّ فقهر، من عزته أنه قهر غيره، ومن حكمته أنه أحسن فيما قضى وقدّر، فالعزة والقوة والهيبة والسلطان والحكمة سداد الأمر وحسن الاختيار وجميل التدبير.

﴿١٢٧﴾ ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴾

ليُهْلِكَ من الذين كفروا طائفة، أو يأسر منهم جماعة، أو يزلزل عَمُودًا من أعمدة الكفر، وهذا الذي تحقق، فقد أهلك الله - عز وجل - من كفار قريش في بدر بعضهم، وأسر المسلمون جماعة منهم، وأما الباقون فعادوا بالخيبة والفشل، فأصابهم الخزي والعار والوهن في الدنيا وفي الآخرة، والعذاب الشديد، وصارت العزة والنصر والدولة والتمكين لمحمد ﷺ وأصحابه، وهذا من لطف الله بالمؤمنين وحسن تدبيره وبالغ حكمته.

﴿١٢٨﴾ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

ولما شُجَّ وجهه ﷺ وكُسرت رباعيته قام يدعو على كفار قريش، فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية، والمعنى ليس لك - يا محمد - من أمر هؤلاء وما يحل بهم شيء، فالأمر كله لله - عز وجل - فلا تستطيع هدايتهم ولا تعذيبهم ولا الانتصار عليهم، ولا تستطيع إقناعهم بدينك، وإنما مردهم إلى الله - عز وجل - إن شاء وفّقهم للإيمان، وإن شاء أبقاهم على عبادة الأوثان، والمرد إليه - سبحانه وتعالى - يعذب من يشاء ويتوب على من شاء، وله - سبحانه وتعالى - الحكمة المطلقة، فإن تاب عليهم بإسلامهم ففضل منه، وإن عذبهم بكفرهم فإنهم يستأهلون ذلك ويستحقونه، والله ليس بظلام للعبيد.

﴿١٢٩﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

كل ما في السموات وما في الأرض هو لله ملكًا وخلقًا وعبيدًا فهو - سبحانه وتعالى - يفعل ما يريد ويحكم ما يشاء، لا معقب لأمره ولا راد لقضائه، وهو - سبحانه وتعالى - له الحكمة المطلقة والقدرة النافذة، يغفر لمن يشاء ويرحمه، ويعذب من يشاء ويعاقبه، والله - سبحانه وتعالى - غفور واسع الغفران لمن أقبل إليه وأناب، رحيم يتجاوز عن كبائر الذنوب لمن عاد إليه وتاب.

﴿١٣٠﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون يا من صدقتم بكتاب الله واتبعتم رسول الله احذروا أكل الربا، فإنه من أعظم المحرمات، ومن أكبر المعاصي والمخالفات، فلا تتساهلوا به حتى يصل بكم الحال إلى أن تأكلوا المال الكثير متساهلين به وتظنوا أنه قليل؛ لأن الطمع والجشع يتدرج بآكل الربا إلى أن يستولي على أموال الناس، وعلى مقدراتهم وهو لا يشعر، وإنما أتى بهذه الآية؛ لأنه لا يصلح جهاد ولا طاعة إلا بأكل الحلال، وآكل الربا لا تُقبل له دعوة، وترد عليه مسألته كما في الحديث: «**فأنَّى يستجاب له**» ثم قال لهم: وعليكم بتقوى الله - عز وجل - بفعل ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، مثل: الربا ونحوه، فإن في ذلك الفلاح والصلاح والنجاح والفوز الأكبر، والنعيم الأعظم؛ ففي طاعة الله - عز وجل - سعادة الدنيا ونعيم الآخرة. [*وهذه الآية كانت قبل تحريم الربا في البقرة*].

﴿١٣١﴾ ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

واحذروا - أيها المؤمنون - الأعمال التي توصلكم إلى عذاب النار، مثل: أكل الربا الذي لا يأكله إلا كل فاجر كفّار، ومثل: التهاون بأموال الناس فإن النار هيأها الله - عز وجل - لمن كفر به وصدّ عن سبيله، وقد تُوصِل الذنوب الكبيرة إذا توالت بالعبد إلى الكفر، وقد يُعَذَّب صاحب الكبائر بالنار التي أعدها الله للكافرين ولا يخلد في النار؟.

﴿١٣٢﴾ ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

أطيعوا الله ورسوله فيما أُمرتم به وما نهيتم عنه لتتوصلوا إلى رحمة الله ومرضاته، وبالسعادة من غشيته رحمة الله، وبالفوزه وفلاحه.

﴿١٣٣﴾ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

بادروا - أيها المؤمنون - وعجلوا - أيها المتقون - إلى ما يوجب لكم مغفرة ربكم، وما تستحقون به دخول جنة مولاكم جنة عرضها عرض السموات والأرض، والفوز برضوانه ونيل النعيم الذي أعدّه لأوليائه، وذلك بفعل الطاعات وترك المحرمات، فإن من عمل صالحًا وأكل حلالاً وقال خيرًا، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وسابق في الخيرات استحق أن يتجاوز الله - عز وجل - عن سيئاته، وأن يعظم حسناته، ويرفع درجاته في جناته.

﴿١٣٤﴾ ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

من صفات هؤلاء الأولياء أنهم يتصدقون في حال الرخاء والشدة والعسر واليسر، والفقر والغنى، فهم لحبهم لما يرضي ربهم عنهم لا يمنعهم الفقر ولا العسر ولا الشدة عن الإنفاق وبذل المال، ولا يحملهم الكبر والطمع والجشع في حال اليسر والرخاء والغنى على إمساك المال، وإنما يغلبون أنفسهم وينفقون في سبيل الله، ومن صفاتهم أنهم يغلبون أنفسهم بالحلم وقت الغضب والغيظ، فلا ينفذون مرادات نفوسهم من التشفي والانتقام، بل ينتصرون عليها ويملكون زمامها، ومن صفاتهم أنهم يسامحون من ظلمهم ويعفون عمن أساء إليهم، ويتجاوزون عنه، فهم يقدمون

العفو طمعًا في عفو الرحمن، ويتركون معاقبة الناس؛ خوفًا من عقاب الديان، وهذا من الإحسان، والله يحب المحسن، وهو الذي يفعل الجميل ويزيد، وهو الذي يتجاوز عمن أساء إليه بل يحسن إلى من أخطأ معه، بل يزيد في إحسانه من إكرام الناس وإيصال النفع إليهم وفي الأثر: «**إن الله أمرني أن أصل من قطعني وأن أعطي من حرمني وأن أعفو عمن ظلمني**».

١٣٥ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ومن صفات هؤلاء المتقين أنهم إذا ارتكبوا كبيرةً أو اقترفوا جريرة وظلموا أنفسهم باعتدائهم على غيرهم عادوا إلى ربهم - سبحانه - فذكروا عقابه وما أعدّ لمن عصاه فاستغفروا الله من الخطيئة، وسألوه المغفرة، وندموا على ما فعلوا، وتأسفوا عما اقترفوا، وعلموا أنه لا يغفر الذنب ولا يتجاوز عن الخطأ ولا يعفو عن السيئة إلا الله الواحد الأحد، ولم يداوموا على هذه المعاصي، ويلجُّوا في الخطأ، ويستمروا على الذنب، وينهمكوا في الإجرام، بل أصبح عندهم من القلق والاضطراب والأسف والندم على ما فعلوا ما يوجب معرفتهم بقبح الذنب، ويعلمهم أنه يجب عليهم التوبة، ويعلمهم أن الله يغفر الذنوب جميعًا، فيحملهم ذلك على التوبة والاستغفار والمبادرة إلى طلب العفو من العزيز الغفار.

١٣٦ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾

أولئك الأخيار المتقون ثوابهم عند ربهم أن يغفر خطيئاتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ويقبل توبتهم، وزيادةً على ذلك يثيبهم بالخلود في جنات النعيم، والفوز العظيم والنعيم المقيم، وهذه الجنات التي أعدها الله لهم هي بساتين غناء، وحدائق فيحاء، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن جمالها أن الأنهار تجري من تحتها، وفيها من الثمار والأشجار والطعوم والألوان ما الله به عليم، ونِعْمَ والله هذه الجنة ثوابًا لمن عمل، وأجرًا لمن سعى، وجائزةً لمن أحسن.

١٣٧ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

قد سبق قبلكم - أيها الكفار - حوادث وعقوبات ووقائع أنزلها - عز وجل - فيمن كفر به، ومن كذب برسله فسيروا في الأرض وانظروا إلى آثار منازلهم، وإلى بقايا بيوتهم وقراهم كيف عصف بهم الدمار، وأحل بهم الخزي والعار، لعلكم تتعظون بما ترون، وتعتبرون بما تشاهدون، فإن في مناظر بقاياهم عبرة لمن اعتبر، وفي النظر إلى آثارهم عظة لمن اتعظ وادّكر.

١٣٨ ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

هذا الذي وقع في الأمم السابقة، وحل بهم من العقوبات بيان للمؤمنين المستفيدين من هذه العظات، وفيه هدىً لمن اتقى، يدلُّه على الصواب، ويجنبه الخطأ، ويجعله على الدوام منتبهًا لنفسه ومصيره، وفيه - أيضًا - موعظة وزجر لمن له ضمير حيٌّ، وقلب حي، ولمن له عقل واعٍ، فالسعيد من وُعظ بغيره، ومصائب قوم عند قوم فوائد.

١٣٩ ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أيها المؤمنون، لا يصبكم الخور والضعف في نفوسكم، والوهن في هممكم ولا تحزنوا على ما أصابكم في سبيل الله من أذى وتشريد وقتل أو هزيمة فالعاقبة لكم، وأنتم الأعلون المنتصرون الفائزون، فالله مولاكم والقرآن كتابكم، ومحمد رسولكم، والجنة مثواكم، وأهل الكفر لا مولى لهم، والغَيُّ منهجهم، والضلال طريقهم، والنار منقلبهم، فأنتم

- أيها المؤمنون - سعداء في هذه الدنيا؛ لأنكم تحملون الهداية في قلوبكم، والشهادة لقتلاكم، والثواب الجزيل لموتاكم، لا تساوي بينكم وبين الكفار، فأنتم أبرار، أَرْضيتم الواحد القهار، وهم أشرار فجار، لهم سوء الدار، وعذاب العزيز الجبار.

﴿١٤٠﴾ ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

أيها المؤمنون، إن كان أصابكم أذىً في سبيل الله، أو قتل أو جراح، فقد أصاب الكفار مثلما أصابكم، وهذه سنة الله - عز وجل - فالأيام دول، مرة نصر، ومرة هزيمة، ومرة سرور، ومرة حزن، فالله - عز وجل - يقلب الأيام والليالي بين الأمم، فيومًا تجد الأمة ظافرة قاهرة منتصرة، ويومًا تراها مغلوبةً مهزومة ذليلة، ولكن لله - سبحانه وتعالى - في ذلك حِكَم، فمنها أن الله - سبحانه وتعالى - يمتحن القلوب بهذه المصائب والأزمات والحروب؛ ليتميز المؤمن من الكافر، والصادق من الكاذب، ومنها أن الله - سبحانه وتعالى - يكرم الشهداء من الأمة المحمدية فيتخذهم أولياء له في جنات النعيم، ومنها أن يظهر عمله - سبحانه وتعالى - في من نصره ومن كفر به ومن صدقه ومن كذبه، وإلا فالله - سبحانه وتعالى - عالم بالأشياء قبل حدوثها، ولكن يظهر علمه فيمن يقع عليه القضاء والقدر من العباد، فمن انحرف عن نصرة الله - عز وجل -، وكذب برسله فهو ظالم، والله لا يحب الظالم؛ لأن الله حرم الظلم على نفسه، وحرمه على غيره، وذم الظالمين وتوعدهم بالجزاء الأليم.

﴿١٤١﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾

والله - سبحانه وتعالى - يريد من هذه الأزمات والكرب أن يطهر المؤمنين من الذنوب، وأن يصفيهم من العيوب، وأن ينقيهم من الخطايا بالشدة التي تحصل لهم من هموم وغموم، وأحزان وقتل وأسرٍ وحبس وتشريد وأذىً، ويريد - سبحانه وتعالى - أن يسحق أعداءه الفجار، ويمحق الكفار، فيقتلهم بأيدي أوليائه، وينكل بهم بأنصاره وحزبه، حتى يستقر الحق على أساس متين، ويبقى مهاب الجانب قوي الركن، ويظهر الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر.

﴿١٤٢﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾

ثم أنكر الله - سبحانه وتعالى - على من ظن أنه سوف يدخل الجنة بلا جهاد ولا جلاد، ولا تضحية ولا ابتلاء ولا شدة، فأخبر الله - سبحانه وتعالى - أنه لابد من التمحيص وظهور علمه - سبحانه وتعالى - فيمن صدق في المجاهدة في سبيله، ومن أنفق ماله وقدم نفسه وسخا بروحه؛ لرفعة كلمة ربه ومولاه، ويظهر علمه - سبحانه وتعالى - وإلا فإنه عالم بكل شيء قبل أن تقع الحوادث، وبعد وقوعها يظهر علمه فيمن صبر واحتسب، وقام بنصرة الحق أشرف قيام، وصمد في وجه الباطل أجلَّ صمود، فهؤلاء يستحقون الجنة برحمة الله، ويستأهلون الفوز بفضله، جزاء بما كانوا يعملون.

﴿١٤٣﴾ ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

ولقد كنتم قبل المعركة تريدون مواجهة الكفار لتنالوا الشهادة في سبيل الله من قبل أن تجدوا حرَّ الموت وشدته، فالآن قد شاهدتموه بأم أعينكم، ورأيتم القتل في إخوانكم وأشرفتم على الهلاك، فكيف تمنونه من قبل ثم كرهتموه لمَّا حصل، وشقَّ عليكم لمَّا نزل؟!.

﴿١٤٤﴾ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

ليس محمد ﷺ إلا رسول مثل المرسلين قبله، ليس بإله يُعبد ولا برب يوحَّد، يموت كما يموت الناس، أفترونه لو مات أو استشهد رجعتم عن الإسلام، وكفرتم بالله الملك العلام؟، إنه من يرتد منكم عن دينه فإنه لا يضر إلا نفسه؛ لأن مصيره العذاب، وأليم العقاب، والله لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي، ولكن من أطاع ربه واتبع رسوله وجاهد في سبيل الله شكر الله له سعيه؛ لأنه يثيب من شكره، ويذكر من ذكره، ويعاقب من كفر به.

﴿١٤٥﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

لا يحصل لنفس أن تموت قبل أجلها أو تتأخر، فالأجل مسمى والعمر محدود، والزمن معدود، والذي يطلب بجهاده الشهرة والثناء والغنيمة فإنه سوف يجدها، ولكن ليس له في الآخرة حظ من الثواب ولا نصيب من الأجر، ومن يطلب بجهاده وجه الله وإعلاء كلمة الله فأجره موفور، وسعيه مشكور، وذنبه مغفور مع نعيم في الجنة وقرة عين في الخلد، والله لا يخيب سعي من أحسن، ولا عمل من استقام.

﴿١٤٦﴾ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وكم من نبي جاهد معه عدد كثير من أتباعه، وعلماء ربانيون من أنصاره، فما أصابهم خور ولا ضعف ولا فشل، وما أصابتهم ذلة ولا خضوع للكفار، بل صمدوا وثبتوا وضحوا حتى انتصروا، والله يحب من صبر ويثيب من شكر؛ والصابر مرحوم، والجازع محروم.

﴿١٤٧﴾ ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

كانوا إذا حضروا المعركة في سبيل الله سألوا الله أن يغفر ذنوبهم وما اقترفوه من خطايا وسيئات، وسألوه تثبيت الأقدام، والنصر على الكفار الطغام عبدة الأصنام. وفيه فضل الدعاء وقت القتال، وأن الذنوب سبب الفشل، وأنه ينبغي التوبة والاستغفار لمن أراد الانتصار على الكفار.

﴿١٤٨﴾ ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

فأكرمهم الله بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة، فَعِزٌّ عاجل وفوز آجل، والله يحب من أحسن العمل، حيث جمع بين الإخلاص لربه والاتباع لرسله، فأدى الطاعة على أكمل وجه، واجتنب المعصية خوفًا من ربه.

﴿١٤٩﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾

إنكم - أيها المؤمنون - لو اتبعتم هؤلاء الكفار لضللتم؛ لأنهم يزيّنون لكم الباطل ويصدونكم عن الحق فهم لا يريدون خيرًا، وإذا أطعتموهم في غيهم رجعتم وقد خسرتم الدنيا والآخرة، فلا عز ولا نصر لكم في دنياكم ولا فوز ولا ثواب في أخراكم.

﴿١٥٠﴾ ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾

ليس الكفار هم أولياؤكم بل وليكم الله وحده - سبحانه وتعالى - وهو الذي يؤيدكم وينصركم ويثبت أقدامكم، فأطيعوه واتبعوا رسوله وآمنوا بوعده ووعيده.

﴿١٥١﴾ ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾

سننزل في قلوب الكفار الخوف والقلق والاضطراب؛ لأنهم أشركوا بربهم بلا دليل ولا برهان، ولم يأمرهم ربهم - سبحانه وتعالى - بما فعلوه، بل خالفوا أمره وفعلوا معاصيه وكفروا بكتابه، وكذبوا رسله، فلهم في الدنيا الخزي والعار، ولهم في الآخرة عذاب السعير ولبئس المصير.

﴿١٥٢﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

والله - سبحانه وتعالى - أنجز لكم ما وعد من النصر على الكفار، فصارت لكم الغلبة عليهم وكنتم تحصدونهم بالسيوف وتقتلونهم قتلاً، ولكنه لما أصاب بعضكم الوهن وحب الدنيا في أُحُد من إرادة الغنيمة، وقع الخلل والخور والجبن في الجيش، فوقعت الهزيمة من بعد ما كاد النصر يحل، ومن بعد ما كانت الغلبة لكم عليهم، فأراد - سبحانه وتعالى - أن يمتحن إيمانكم، وأن يمحص قلوبكم، وأن تكون لكم هذه عبرة ودرسًا، فصرفكم عن الكفار، ثم عاد سبحانه وتعالى عليكم بالعفو، فغفر لمن فرَّ منكم أو انهزم، والله فضله واسع، وأحق العباد بفضله هم عباده المؤمنون، فهو قريب منهم يغفر زَلَلهم، ويسدد خَلَلهم، ويعافي عِلَلهم.

﴿١٥٣﴾ ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

وتذكروا - أيها المؤمنون - إذ تفرون يوم أحد صاعدين في الجبل منهزمين تاركين رسول الله ﷺ خلفكم من شدة الخوف والهلع، والرسول - عليه الصلاة والسلام - يناديكم أن اثبتوا، إليّ عباد الله، إليّ عباد الله، أنا رسول الله، فجازاكم الله - سبحانه وتعالى - بفعلكم هذا غمًّا وجدتموه في صدروكم بسبب غمكم للرسول ﷺ ومخالفتكم لأمره، ومن أجل ألا تأسفوا على ما فاتكم من الغنيمة، ولما أصابكم من الهزيمة، فالغم يكفّر السيئات، والحزن يمحو الخطيئات، والله - سبحانه وتعالى - مطلع على أعمالكم، سامع لأصواتكم عالم بأحوالكم، يعلم الصادق من الكاذب، والمؤمن من الكافر.

﴿١٥٤﴾ ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

ثم أرسل الله - سبحانه وتعالى - بعد هذا الغم الشديد سكينة وطمأنينة أنزلها على قلوبكم بعد الفَرَق والقلق، فكان الواحد من المسلمين ينعس والسيف يسقط من يده، وأما المنافقون فقد طاشت عقولهم، ودهشت أذهانهم، وفارق النوم عيونهم لجزعهم وهلعهم وعدم سكينتهم، والمنافقون يقولون لم نُستَشر في مثل هذا الأمر من مقاتلة الكفار، ولو كان لنا رأي وقُبِل كلامنا ما كنا في هذا الموقف الضنك، ولا في هذا الخوف الشديد؛ ليشكِّكوا في أمر الرسول - عليه الصلاة والسلام - وفي دين الله - عز وجل -، وهم مع ذلك يبطنون في أنفسهم الكفر والنفاق والكره لله ولرسوله وللمؤمنين، ويظهرون المسايرة والمجاملة في الظاهر، فردّ الله - سبحانه وتعالى - عليهم بأنهم لو كانوا في

بيوتهم لأخرج الله - سبحانه وتعالى - من حلّت منيته وانتهى عمره ونفذ القضاء فيه فقُتل في أي مكان قدّره - سبحانه وتعالى - فلا بيته يمنعه، ولا حصنه يحميه، وبمثل هذه الوقائع والحوادث يختبر الله سبحانه وتعالى إيمان المؤمن ونفاق المنافق، فينقي قلوب المؤمنين، ويطهرها من الأمراض، ومن الشكوك والريب، ويفضح الله - سبحانه وتعالى - المنافقين، ويظهر ما في قلوبهم من الكره للإسلام والبغض لأوليائه؛ لأنه سبحانه وتعالى يعلم ما في السرائر ويطلع على ما في الضمائر لا تخفى عليه خافية، ولا يستتر عليه سر.

(١٥٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

إنّ الذين فرّوا منكم - أيها المؤمنون - يوم أحد إنّما استدرجهم الشيطان، وألقى في قلوبهم الرعب بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ، لكن الله لما علم بإيمانهم تجاوز عنهم وغفر ذنبهم وسامح خطأهم؛ لأنه غفور واسع المغفرة لمن استغفره، حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهلهم حتى يتوبوا وهذا جزاء المؤمنين عند خطئهم، وأما المنافق فإنه يؤاخذ بالكبيرة والصغيرة لسوء معتقده.

(١٥٦) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

أيها المؤمنون، احذروا أن تشابهوا من كفر من أهل النفاق والريب والذين يقولون لأصحابهم إذا خرجوا للتجارة أو سافروا للجهاد لو كانوا في بيوتهم معنا ما أدركهم الموت، وما قُتلوا؛ ليكون هذا الأمر غمًا في قلوبهم وحسرةً في نفوسهم؛ لأنه غير صحيح، فالله قدّر المقادير وقدّر وقت موت الميت، وقتل المقتول لا يتقدم ساعة ولا يتأخر ساعة؛ لأنه - سبحانه - المحيي والمميت وحده، فكل شيء بقضاء وقدر وبأجل مسمى، ولكن أراد الله أن يدخل عليهم الكآبة والحسرة فجعلهم يترددون حتى في مسائل القضاء والقدر، والله - سبحانه وتعالى - عليمٌ بما يكنٌّ هؤلاء، وما يخفون وما يسرون، فهو فاضح أمرهم كاشف نياتهم.

(١٥٧) ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

أيها المؤمنون، إن قُتلتم في سبيل الله وإعلاء كلمته أو متم على فراشكم وأنتم تنوون نصرة دين الله، فالله يغفر ذنوبكم ويجزل ثوابكم ويرفع درجاتكم، وهذا الفوز العظيم الذي ينتظركم والنعيم المقيم الذي هو أمامكم خير مما يجمع أعداء الله ومما يدخرون، فأنتم تكسبون الثناء الحسن والعز والنصر في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

(١٥٨) ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

وسواء مات الميت منكم على فراشه، أو قُتل في ساحة المعركة، فإن مصيره إلى الله - سبحانه وتعالى - فعليه أن يخلص نيته وأن يصدق في عمله وأن يراقب ما بينه وبين ربه، فما دام أن المرجع إليه فينبغي أن تقدم مرضاته، وأن يحذر غضبه، وأن يُطاع رسوله ﷺ.

(١٥٩) ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

فبسبب الرحمة التي أودعها الله فيك، والعطف الذي جعله الله في قلبك كنت لينًا قريبًا سهلاً مع المؤمنين، فعفوت عن خطئهم، وسترت خللهم، وتجاوزت عن زللهم، مع أنهم خالفوا أمرك ولم يصمدوا معك في القتال، وهذه رحمةٌ من الله - سبحانه وتعالى - أعطاك إياها، ولو كنت - أيها النبي الكريم - فظًا في قولك، غليظ المعاملة لتفرق عنك

أصحابك، ولابتعدوا عن نصرتك، ولكنه لحسن خلقك جمع الله عليك القلوب، وألَّف عليك الأرواح، فعليك بالعفو عن المؤمنين عمَّا بدر منهم من تقصير في مخالفة أمرك، واطلب من ربك أن يغفر لهم الخطايا والذنوب، فإنه غفَّار رحيم، وشاور أصحابك في كل أمرٍ ذي بال ليشعروا بقربك منهم؛ ولتكون قدوةً للأمة من بعدك، فإذا جدّ الجد واجتمع رأيك على أمر فاعزم وتقدم وتوكل على ربك - سبحانه وتعالى - فعليه وحده الاعتماد، وعليه التكلان، فإنه يحب من يفوض الأمر إليه، ويعتمد عليه، ويثق بحسن اختياره جل في علاه.

﴿١٦٠﴾ ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾

إذا كتب الله لكم النصر فلن يغلبكم كافر، ولن يهزمكم عدو، وإن كتب الله عليكم الهزيمة فلن ينصركم أحد من الناس، فعليكم بطلب النصر من عنده - سبحانه وتعالى - وذلك بالتوكل عليه والثقة بوعده والرضا بدينه، حينها تُنصرون في دنياكم، وتُثابون في الآخرة؛ لأن الذي يملك أمر الدنيا وأمر الآخرة هو الله وحده سبحانه وتعالى.

﴿١٦١﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾

ما ينبغي لنبي ولا يحق له أن يخفي شيئًا من الغنيمة أو يدخرها لنفسه كما قال بعض المنافقين لما فُقدت في يوم بدر بعض الأموال، قالوا: لعل النبي ﷺ أخذها، وحاشاه بل هو البريء المطهر المعصوم ﷺ؛ لأن الغلول ينافي الأمانة وهو نوع من الخيانة، فكيف يخون النبي بمال وعرض زائل وقد استأمنه الله - سبحانه وتعالى - على الرسالة السماوية والدعوة الربانية، ثم أخبر - سبحانه وتعالى - أن من يخون فإنه يأتي يوم القيامة بجريرته وجريمته على رؤوس الأشهاد فيفضحه ربه أمام العالمين، ثم يوفيه الله حسابه وعقابه يوم يوفّي - سبحانه - كل نفس بما كسبت من صلاح أو فساد، وهو - سبحانه وتعالى - عادل لا يظلم، فلا يضيف لمسيء سيئات لم يعملها، ولا يبخس محسنًا حسنات قد عملها، بل هناك القسطاس المستقيم والوزن القويم، وعدل الرحمن الرحيم.

﴿١٦٢﴾ ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

هل من سَلك ما يحبه الله - سبحانه وتعالى - من الإيمان به واتباع رسوله ﷺ والعمل بما يحبه واجتناب ما يكرهه كمن عاد بالخسران واللعنة والغضب بسبب كفره ونفاقه وإلحاده في دنياه، فله في الدنيا الخزي والعار، وفي الآخرة مأواه النار وبئس المصير.

﴿١٦٣﴾ ﴿ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾

الناس متفاوتون عند الله - عز وجل - فالمؤمنون درجات في جنات ونعيم مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، وفي النار دركات للمنافقين والكفار والمعرضين عن دين الله - عز وجل - والله بصير بعمل كل عامل، فهو - سبحانه وتعالى - ينزّل كل إنسان منزلته في الآخرة على حسب عمله، لا يزيد ولا ينقص، بعدلٍ وعلمٍ وحكمةٍ، فما على العبد إلا أن يعمل وأن يخلص عمله ولا يخشى أن يُهضم يوم القيامة أو يُظلم.

﴿١٦٤﴾ ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾

لقد تفضل الله - سبحانه وتعالى - فأكرم المسلمين بمبعث محمد - عليه الصلاة والسلام - من جنسهم ومن قبائلهم؛ ليقتدوا به ويكون أسوةً لهم يقرأ عليهم آيات الله - عز وجل - ويبين لهم الأحكام ويدلهم على أشرف الآداب، ويطهر قلوبهم من الرجس والدنس والشك والريبة، ويعلمهم القرآن والسنة بعدما كانوا يتخبطون في الظلمات، ويتعثرون في المخالفات، فلم يكن لهم نور يهدي، ولا إمام يُقتدى به، ولا شرع يُتحاكم إليه، بل كانوا في غيّ عظيم وفي ضلال مبين.

﴿١٦٥﴾ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

أحين وقعت عليكم هزيمة أحد قلتم كيف نُهزم وقد وُعدنا بالنصر ونحن على الحق؟ وكيف يغلبنا المشركون وهم على الباطل؟ فقل لهم يا محمد: سبب الهزيمة منكم أنتم؛ لأنكم عصيتم أمري ولم تعملوا بما وجهتكم به من المكْث على جبل الرماة فَهُزِمْتم، فاذكروا ولاتنسوا أنكم لما وجهتكم إليه طلبت منكم الصبر على جبل أحد، وأنتم قد هزمتم الأعداء يوم بدر، فإن كان قُتل منكم سبعون في أحد، فقد قتلتم أنتم منهم في بدر سبعين، وأسرتم سبعين، فأنتم نلتم منهم ضعف ما نالوه منكم، وكل شيء بقدر من الله -سبحانه وتعالى- لأنه قدير لا يعجزه شيء، حكيم لا عوج في أمره ولا اختلال بصير بعباده.

﴿١٦٦﴾ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

والذي أصابكم في أحد بسبب عصيانكم للرسول ﷺ هو بتقدير الله فكل شيء بقضاء وقدر، لحكمةٍ أرادها -سبحانه وتعالى- حتى يظهر علمه في المؤمنين، ويتبين الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، فيظهر جهاد المجاهد، وزيغ الزائغ، ويبين كل شيء على حقيقته، ويبطل الادعاء.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾

وليظهر علمه -سبحانه وتعالى- في أهل النفاق المردة، وليتبين موقفهم ولينكشف أمرهم، الذين دعاهم رسول الهدى ﷺ للجهاد في سبيل الله في أحد أو الدفاع عن المدينة إن لم يقاتلوا دينًا، فليدافعوا من أجل دنياهم، فكذبوا على الله -عز وجل- وقالوا: لو أننا نتيقن أن هناك قتالاً لخرجنا مع الرسول ﷺ، ولكنهم كذبوا في ذلك فهم يعلمون أن هناك قتالاً، وهم لن يخرجوا لو تحقق لهم الأمر وهم أقرب للكفر، وليسوا أقرب للإيمان، فالإيمان منهم براء؛ لأن المؤمن لا يخالف أمر الرسول عليه الصلاة والسلام، ولا يشق عصا المسلمين، ولا يتخلف عن الجهاد، ولا يوالي أعداء الله، وهؤلاء يتحدثون بألسنتهم كلامًا يخالف ما يعتقدونه في قلوبهم، فظاهرهم غير باطنهم وعلانيتهم غير سرهم، فهم يظهرون الملاينة والكلام الحسن، ويبطنون الخبث والمكر والكيد للإسلام والمسلمين، ولكن الله كاشف أمرهم، وفاضح سرائرهم وهاتك أسرارهم، لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عنه غائبة -جل في علاه-.

﴿١٦٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

هؤلاء المنافقون يوصون إخوانهم إما من المسلمين أو من المنافقين، ويقعدون عن القتال هم، ويقولون لمن خرج مجاهدًا في سبيل الله بائعًا نفسه من الله مضحيًا لنصرة دين الله، لو أطاعنا هذا الخارج إلى المعركة ما قُتل هناك، ولو أخذ برأينا ما ذهبت نفسه هدرًا، فكأنهم تحصنوا من الموت، وامتنعوا من الفناء، فردّ الله -سبحانه وتعالى- على مقولتهم القبيحة فقال: فأنتم إن كنتم صادقين أنكم سَلِمْتُم من الموت في المعركة فادفعوا عن أنفسكم الموت وأنتم في بيوتكم، لكنكم لا تستطيعون، وسوف يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة، فهل تستطيعون دفع الموت عن أحد أو تأخير الموت عن أحد، وأنتم لا تستطيعون تأخيره عن أنفسكم؟.

﴿١٦٩﴾ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾

ولا يظنن أحدٌ من الناس أن من قُتل من أجل إعلاء كلمة الله -عز وجل- شهيدًا في المعركة أنه ميت، بل له حياة مُخَصَّصَةٌ في البرزخ يُنعّم فيها بجوار رب العالمين في جنات ونهر في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، فهو مسرور فرح بمقعده يُرزق من ثمر الجنة، ومن أنواع أطعمتها ومن شرابها، فله إكرام مَخْصوص، وله إنعام من الله -عز وجل-؛ لأنه بذل نفسه في سبيل الله.

﴿١٧٠﴾ ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هؤلاء الشهداء مسرورون بما وفقهم الله - سبحانه وتعالى - من بيع أنفسهم منه، ومن نيل الشهادة، ونيل الكرامة في جنات النعيم، وفي المقام العالي الآمن، وفي الفوز الأكبر، ويفرحون أيضًا لإخوانهم المؤمنين في الدنيا، ويتمنون أن ينالوا الشهادة مثل ما نالوها هم ليشاركوهم في الأجر وفي الثواب العظيم وفي المقام الكريم في جنات النعيم، وهؤلاء الشهداء لا خوف عليهم، فلا يخافون من أهوال القيامة، فقد أمَّن الله خوفهم، وربط على قلوبهم، وأنزل السكينة عليهم، وبشرهم بالأمن الدائم والسرور والحبور، ولا يحزنون من عواقب سيئات يخافون منها، أو من مغبة خطايا سلفت منهم، بل إن الله حطَّ خطاياهم، وغفر ذنوبهم، وعفا عنهم لتضحيتهم في سبيل الله.

﴿١٧١﴾ ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هؤلاء الشهداء فرحون بما أعطاهم الله - سبحانه وتعالى - من هذا النعيم من قرة العين، وبهجة الروح، وحسن الحال، ونضرة الوجه، ورغد العيش، والإقامة الدائمة مع الشباب والصحة، ومع النظر إلى وجهه الكريم - جل في علاه - فالفضل فضله، والنعيم نعيمه - سبحانه وتعالى - لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يحبط عمل عامل، ولا يضيع سعيه إذا صدق في إيمانه وأخلص في عمله، بل يدخر الله - سبحانه وتعالى - له أعظم مما فعل، ويجعل عاقبته حميدة في جواره.

﴿١٧٢﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

هؤلاء المؤمنون المجاهدون في سبيل الله الذين حضروا أحدًا، لهم الأجر الدائم، فمَيِّتُهم شهيد مقيم في جنات النعيم، وحَيُّهم في عزة ينتظر النصر والثواب من الله، الذين استجابوا لله ولرسوله من بعدما أصابتهم الجراحات والبلاء والشِّدّة، وبعدما أصابتهم الهزيمة فدعاهم الرسول ﷺ لمناجزة المشركين لما بلغه أنهم اجتمعوا في حمراء الأسد، فهب المسلمون من ساعتهم، وكان الرجل يحمل أخاه الجريح، وذهبوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - طائعين لأمره بعدما زُلزلوا زلزالاً شديدًا، فهؤلاء الذين أحسنوا الاستجابة وامتثال الأمر والمسارعة إلى إجابة داعي الجهاد، واتقوا الله - سبحانه وتعالى - في ترك مخالفة الرسول ﷺ والخروج على جماعة المؤمنين، هؤلاء لهم أجرٌ عظيم عند الله، فمن أجرهم تكفير سيئاتهم، ومضاعفة حسناتهم، ورفع درجاتهم مع الأمن في الجنة وحسن الإقامة ودوام النعيم الأبدي الأزلي في جوار أرحم الراحمين.

﴿١٧٣﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

هؤلاء المؤمنون الصادقون المجاهدون قال لهم بعض المرجفين من الموالين لكفار قريش يخوفونهم: إن قريشًا قد جمعوا جموعهم، وقد أعدوا عدتهم، وأقبلوا في خيل ورجل يريدون غزوكم، فانتبهوا واحذروا؛ ليدخلوا الرعب في قلوب المؤمنين، فما كان من المؤمنين إلا أن زادهم الله - سبحانه وتعالى - على إيمانهم إيمانًا، وعلى صدقهم تصديقًا، وعلى ثباتهم ثباتًا، فثبتوا أعظم ثبات، ووقفوا أحسن موقف، وذهبوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - والتجؤوا إلى الله فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فالله يكفينا من كل عدو، والله يمنعنا من كل غاز، والله ينصرنا من كل محارب، فنحن جنده، ونحن حزبه، ونحن معه، ولن نُغلب والله معنًا، ولن نُهزم والله نصيرنا، ولن نخذل والله يؤيِّدنا.

﴿١٧٤﴾ ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

فبعد أن قالوا هذه الكلمة العظيمة واتكلوا على الله - سبحانه وتعالى - رجعوا بالخير والسلام، والأجر والكرامة، ولم يصبهم أذىً، ولم يتعرضوا لمكروه، ولم يلقوا عدوًا؛ لأنهم أحسنوا الاستجابة لأمر الله، وكل مستجيب لله يحسن

الله عاقبته، ويجعل الدائرة على عدوّه، وهؤلاء اتبعوا ما أمر الله به - سبحانه وتعالى - فإن رضا الله - عز وجل - في اتباع رسوله المرسل من عنده، والله - عز وجل - يمنُّ على من يهتدي بهداه، ومن يقتدي برسوله ﷺ بالنصر في الدنيا والفوز في الآخرة، فإن عاش عاش عزيزًا، وإن مات مات مرحومًا مكرمًا منعّمًا في جنات النعيم.

﴿١٧٥﴾ ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

ويا أيها المؤمنون، إن هذه التخويفات، وهذا الإرجاف إنما هو من الشيطان، يخوفكم بأوليائه، ويرسل أتباعه وأعوانه يبثون الرعب في قلوب المؤمنين، فاصمدوا وثقوا بالله - عز وجل - وتوكلوا عليه وفوضوا الأمر إليه، ولا تخافوا أتباع الشيطان ولا أولياءه، وعليكم بخوف الواحد الأحد عزيز الجانب القوي الذي لا يُغالب، الذي بيده الضر والنفع، والموت والحياة، فإن المؤمن الصادق لا يخاف غير الله - عز وجل - فإن الناس لا ينفعون ولا يضرون، ولا يُحيُون ولا يُميتون، ولا يَصِلُون ولا يَقْطَعون، ولا يُعْطُون ولا يَمْنَعون إلا بإذن الله.

﴿١٧٦﴾ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ولا تحزن - أيها الرسول - من هؤلاء الذين يذهبون إلى الكفر ويتعمقون في الضلالة ويستمرون في الغواية، فإنهم لن يضروا إلا أنفسهم، ولن يدخلوا الضرر على الله - سبحانه وتعالى - فالله غني عن العباد لا تنفعه طاعة الطائع، ولا تضره معصية العاصي، وإنما أراد الله - سبحانه وتعالى - يوم كتب عليهم الكفر ألا يدخر لهم ثوابًا في الآخرة من النعيم ودخول الجنة، ولا يكتب لهم في الدنيا عزةً ولا نصرًا، وإنما فعل بهم هذا الفعل ليمحقهم ويُذلهم ويكرم المؤمنين على أيديهم، وادخر - أيضًا - لهم عذابًا مؤلمًا فظيعًا في الآخرة جزاء ما فعلوا من القبيح وما قدموا من الإساءة.

﴿١٧٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

هؤلاء المنافقون الذين باعوا الإيمان واستعاضوا به الكفر، ضررهم على أنفسهم، وكيدهم يعود عليهم، والله - عز وجل - لن يتضرر من إدبار مدبر، ولا من كفر كافر، ولا من نفاق منافق، فله العزة المطلقة، الغنى المطلق - جل في علاه - وما يضرون إلا أنفسهم وسوف يجزيهم على سوء هذا الصنيع وعلى قبح هذا التصرف منهم.

﴿١٧٨﴾ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

لا يظنَّن الكفار أنّنا إذا أمهلناهم في هذه الحياة ولم نُعاجل لهم العقوبة، ولم نقدم لهم النكال والعذاب أنه لخير لهم عندنا، أو أننا ادخرنا لهم الثواب، بل نريد من تأخير العقوبة بهم وإمهالهم أن يبقوا أطول مدة ليزدادوا من الخطايا، ويتكثَّروا من السيئات، ثم ينقلبوا إلينا في الآخرة لننزل بهم أشد أنواع العقوبات، وأفظع النكال في نار الجحيم.

﴿١٧٩﴾ ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

ما كان الله ليترك المخلصين منكم - أيّها المؤمنون - على ما أنتم عليه حتي يتميز المخلص الصادق من المنافق الكاذب، بما يوحيه إلى نبيه وإخباره بأحوالكم، والله - عز وجل - لا يطلع العباد على الأسرار التي لا يعلمها إلا هو، ولكنه - سبحانه وتعالى - يكتب الابتلاءات والمحن والشدائد، فيظهر هذا من هذا، فلولا البلاء لما عُرف الأتقياء من الأشقياء، ولولا البلاء لما اطّلع المؤمنون على نفاق المنافقين، والله - سبحانه وتعالى - لا يكشف الغيب لكل أحد من عباده، ولكنه يختار - سبحانه - من عباده رسلاً يطلعهم على بعض الغيب، وعلى أسرار القضاء والقدر، فيخبرون أقوامهم بشيء من ذلك، فأنتم ليس عليكم مطالعة الغيب واكتشاف أسرار القدرة، لكن عليكم الإيمان بالله - عز

وجل - واتباع رسوله ﷺ والتسليم لأمره - سبحانه - والجهاد في سبيله، وأنتم إذا فعلتم الواجب عليكم من الإيمان وفعل المأمور وترك المحظور والقيام لله - سبحانه وتعالى - حق القيام بما يحبه ويرضاه، فالله - سبحانه وتعالى - يدّخر لكم الثواب الجزيل، والأجر العظيم في جواره ومع أوليائه.

١٨٠ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

ولا يظن الأغنياء البخلاء الذين يمسكون أيديهم ولا ينفقون في سبيل الله ولا في وجوه الخير أن إمساكهم للمال ينفعهم ويحصنهم من النكبات والنوازل، بل إن هذا الإمساك هو مقت عليهم وعذاب لهم في الآخرة، ومحق لبركة رزقهم وقسوة في قلوبهم، وسيجعل الله - سبحانه وتعالى - هذا المال طوقًا في عنق الواحد منهم من النكال والعذاب يلازمه في نار جهنم بسبب بخله وإمساكه وتقتيره على نفسه، وإلا فإن الواحد الأحد له ما في السموات والأرض ليس بحاجة إلى إنفاق هؤلاء ولا إلى صدقتهم، فهو رب السموات والأرض ومالك ما فيهما، وهو يرث - سبحانه وتعالى - كل غني وفقير؛ لأنه يرث الأرض ومن عليها، فسوف يحاسبهم بهذه الأموال؛ لأنه - سبحانه وتعالى - خبير بما اقترفوه، عليم بما فعلوه، مطلع على ما صنعوه.

١٨١ ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

سمع الله مقالة اليهود الشنيعة القبيحة - قاتلهم الله - التي قالوا فيها: إن الله فقير؛ ولذلك يطلب القرض منا، ويدعونا للإنفاق، ولو كان غنيًا لاستغنى عن أموالنا ولم يطلب منا أن نتصدق وأن ننفق، فأخبر الله - سبحانه وتعالى - أنه سوف يسجل عليهم هذه المقولة القبيحة، وهذه الكلمة النابية؛ ليحاسبهم بها، وأيضًا سوف يأخذهم بما فعلوه في سابق الزمان من قتلهم لأنبياء الله - عز وجل -، وسوف يوردهم النار ليحرق أجسامهم التي تَرَبَّت على السحت، ويمزق أوصالهم التي نبتت بالمال الخبيث، فالله - سبحانه وتعالى - له ما في السموات والأرض، وهو الغني عن كل أحد، ولكنه أراد من العبد أن يتصدق على نفسه بشيء من المال يعطيه الفقير والمحتاج والمسكين.

١٨٢ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

وهذا العذاب الذي يحل بهؤلاء الفجرة من اليهود وأمثالهم إنما هو بسوء صنيعهم، وبما فعلوه في الدنيا من التكذيب ونكث العهد ونقض الميثاق، وقتل الأنبياء والبخل بالمال، وأكل السحت وقول الكذب وتناول الرشوة والتزوير في الكتاب، والتحريف للكلام والتبديل للمعاني؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يظلم أحدًا، وليس في حاجة أن يوقع العقاب بمن لا يستأهله، فإن العباد عباده، فَتَقِيُّهم مأجور، وشقيهم معذب مهان؛ حكمةً من الباري - جل في علاه - ليوفي كل نفسٍ بما كسبت.

١٨٣ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

هؤلاء اليهود افتروا على الله فرية وكذبوا على الله كذبة فقالوا: نحن لا نؤمن لأي رسول يُبعث إلا إذا أتانا بعلامة واضحة، وهذه العلامة أن يأتينا بكبش أو بناقة أو ببقرة فيقدمها فتنزل نار من السماء، فتحرق هذا القربان الذي قدّمه، فردّ الله عليهم - سبحانه وتعالى - قولهم بأن هذا كذب وافتراء، فلم يعهد الله لهم ذلك، ولم يوصهم به، ولم ينزل عليهم هذا في أي كتاب من كتبه، ثم قال لهم: قل لهم يا محمد: قد جاءكم من قبلي رسلٌ بالبينات

الواضحات والآيات الباهرات والدلالات والمعجزات، وأتوكم - أيضًا - بما طلبتم من القرابين، وما ذكرتم من العلامات، ولكنكم كذبتموهم وقتلتموهم وكفرتم بما أنزل عليهم، فَلِمَ فعلتم هذا الفعل بأنبيائكم وتطلبون من غير أنبيائكم هذه العلامات؟ إنكم إذًا مفترون على الله، كاذبون على دينه، خارجون عن طاعته.

١٨٤ ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾

فإن ردوا رسالتك - يا محمد - وأعرضوا عن دينك وكذبوا بما بُعثت به، فقد سبقك رسل جاؤوا بالآيات البينات والمعجزات، وجاؤوا بالكتب السماوية، وأتوهم بالهدى الواضح والحِكَم النيّرة والمواعظ المؤثرة، ولكنهم كذبوهم، وحاربوهم وقتلوهم، فأنت لست بدعًا في هذا الطريق، ولست أول من كُذب فاصبر واحتسب.

١٨٥ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

كل نفسٍ ستذوق كأس الموت لا محالة، ولا استثناء أحد من ذلك، وهذا فيه وعد للمؤمن بأن الله سوف يثيبه بعد وفاته، ووعيد للمكذب الفاجر بأن الله سوف يعاقبه بعد موته، وسوف توفون - أيها الناس - أجور أعمالكم بعد موتكم إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًا فشر، فليست هذه الدنيا دارًا لإثابة المطيع ومعاقبة العاصي، وإنما الدار هناك حيث يوفي الله - سبحانه وتعالى - كل نفسٍ ما كسبت، وإلا فالدنيا دار قصيرة حقيرة، لا يمكن أن تكون زمنًا لتنعم المؤمنين، ولا معاقبة الكافرين، والآخرة خير وأبقى، وفيها الحياة الحقيقية فمن بُعِّد عن نار جهنم فقد حصل على الفوز العظيم والرضوان الكبير، وليس الفوز هو ما يدعيه بعض الجهلاء والسفهاء من أنه نيل المناصب العالية والأموال الكثيرة، وجمع الحطام الفاني والتباهي في هذه الدار بزينتها وزخرفها وكثرة الأولاد وسعة الدور والقصور والشهرة والجاه عند الناس، فليست هذه الدار إلا أحلام نائم، وخيال عابر زائل، وأمانٍ مضمحلة، وثوان معدودة.

١٨٦ ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

لتمتحنن بالمصائب والحوادث والكوارث في أموالكم بالنفقة الواجبة، وبالجائحات السماوية وبالآفات الأرضية وبذهاب هذه الأموال بالسرقات والتلف والإحراق وغيره؛ ليعلم - سبحانه وتعالى - من يصبر ومن يحتسب، وسوف تُبْلَون في أنفسكم بالأذى الشديد والابتلاء الأكيد والمحن والزلازل والفتن؛ ليثبت من يثبت على حق، وينحرف من ينحرف عن بينة، وليمحص الله الذين آمنوا ويظهر نفاق المنافق، وكفر الكافر حكمةً من الله وسنة ماضية، وسوف تسمعون من اليهود والنصارى، ومن وثَنِيِّي العرب من الاستهزاء والسخرية والتكذيب والعناد والمحادة والصدود عن دينكم ومحاربتكم وتأليب الناس عليكم، والتحزب ضدكم، فإن صبرتم بالثبات على دينكم، وأداء ما أمركم الله به واجتناب ما نهاكم عنه واتقيتم بفعل المأمور واجتناب المحظور، فهذا الذي يعينكم على إصلاح أنفسكم وعلى قوام أمركم وعلى الهمة التي يمنحها الله لكم بسبب هذا الصبر والتقوى والعزيمة الماضية التي تثمرها الطاعات، وتنتجها العبادات، حينها تنتصرون بإذن الله على كل عدو لكم.

١٨٧ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾

واذكروا يوم أخذ الله - سبحانه وتعالى - العهد الوثيق والميثاق الغليظ على اليهود والنصارى أن يبينوا للناس الكتب التي نزلت إليهم من التوراة والإنجيل، ويظهر للناس حكم الله - سبحانه وتعالى - في هذه الكتب من الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، والحلال والحرام، وأُمِرُوا أن يبينوا ما أوتوه تعليمًا وفتيا وقضاءً ولا يجحدوا شيئًا منها ولا يخفوا أمرًا من أمورها، ولكنهم طرحوا ذلك ونبذوه خلف ظهورهم كالمُعْرِض وكالمستهزئ بأمر الله - سبحانه وتعالى - واستعاضوا مكان هذا الكتاب المقدس ثمنًا بخسًا رخيصًا حقيرًا تافهًا من حطام الدنيا الزائل المضمحل، فبئس - والله - ما استعاضوا به بدل الرفعة بالعلم والإمامة في الدين والثناء عند الله وعند خلقه والمكانة الباقية والذكر الحسن والخلود في جنات النعيم.

﴿١٨٨﴾ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

لا تعتقد أن من فرح بما فعل، وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل، فلا تعتقد أنه بعيد عن عذاب الله وأخذه، فإن بعضهم يفرح بما فعل ولو كان خطأً ولو كان معصيةً ويتبجح بذلك عند الناس مثلما فعل اليهود لما سألهم الرسول ﷺ عن شيء مما أنزل عليهم فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وخرجوا من عنده وقد أَرَوْه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه وفرحوا بما أوتوا من كتمان ما سألهم عنه ﷺ فباؤوا بخسران من الله عظيم، وربما دخل في ذلك من فرح بمديح الناس وطلب المنزلة عندهم، وسعى إلى الجاه لديهم، وإلى المكانة في صدروهم، فيمحق الله سعيه ويبطل عمله؛ لأنه أراد غير الله سبحانه وتعالى.

﴿١٨٩﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

والأمر لله - سبحانه وتعالى - فكل ما في السموات والأرض ملك له، فهو يتصرف فيهما كيف يشاء خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وإحياءً وإماتةً ومجازاةً ومحاسبةً، فالواجب أن يُقصد هو بالعمل وأن يُعبد وحده، وهو - سبحانه وتعالى - قادرٌ على كل شيء ولا يغلبه أمر ولا يعجزه شيء ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فهذا الإله الذي هذا وصفه حقيق أنْ يُخاف، وأنْ يُتقى، وأن يُخشى، وأن يُعامل وحده، وأن يُخلص له السعي، ولا يُطلب الثناء ولا الحمد ولا الجزاء من غيره - جل في علاه -.

﴿١٩٠﴾ ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

في خلق السموات المرتفعة، وهذا السقف المحفوظ وما فيه من آيات بينات من شمس وقمر ونجوم وكواكب ومجرات مع ارتفاع هذا البناء وحسن نظامه وروعة بنائه، وكذلك الأرض وبسطها للناس وتسويتها، وإيجاد الجبال فيها والروابي والهضاب والبحار الواسعة والمحيطات الكبيرة وشق الأنهار، - وأيضًا - خلق الليل إذا أقبل بظلامه وغطى العالم بسربال، وما فيه من آيات كالقمر والنجوم والكواكب، والنهار الذي تطلع فيه الشمس ببهائها وصفائها وإشراقها، كل هذا دلالات لمن أراد أن يتفكر في خلق الله، وأنْ ينظر في بديع صُنع الله، ولكن لا يعتبر بذلك إلا من كان له عقل مفكر، وبصيرة حية، وضمير واعٍ، أما ميت القلب، خاوي الضمير، أعمى البصيرة فلا ينتفع من هذه الآيات لأنه لا لبّ له ولا عقل ولا بصيرة، بل هو كالبهيمة التي لا يطمع منها التفكر ولا النظر في صنع الله وآياته.

﴿١٩١﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

وهؤلاء الذين يتفكرون في خلق الله هم الذين يذكرونه ويداومون على ذكره بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، يذكرونه قيامًا وهم يمشون في مصالحهم وفي أسواقهم وطرقاتهم، ويذكرونه إذا جلسوا في مجالسهم ومساجدهم ودروسهم ومناسباتهم الخاصة والعامة، ومن حبهم له - سبحانه - أنهم يذكرونه - أيضًا - وهم على جنوبهم مستقبلين النوم في وقت الراحة بعد التعب والإعياء، ومع ذلك لم يشغلهم شاغل عن ذكره ويديمون التدبر لآيات الله وخلقه في

السموات والأرض، فينظرون إلى كل آية بصفتها دليلاً من أدلة القدرة، وينظرون إلى كل مخلوق على أنه سطر في كتاب المعجزة يدل على الباري - سبحانه وتعالى - فهذه الكائنات إنما هي حروف ناطقة، وشهادات باقية على عظمة العظيم - جل في علاه - وعلى قدرته وحكمته وبديع صنعه، وهم يقولون إذا رأوا ذلك وجلين خائفين: يا ربنا نشهد أنك ما خلقت هذا عبثًا وباطلاً، بل أوجدت هذا الخلق لحكمة، وأبدعته بقدرة، وصورته لمقصد تقدست عن الأنداد، وتنزهت عن الأضداد، فتباركت يا ربنا، فنسألك أن توفقنا للعمل الصالح الذي نفعل فيه ما أمرتنا به، ونجتنب ما نهيتنا عنه، ليوصلنا ذلك إلى أن تنجينا من عذاب النار، وتحمينا من غضبك ومن سوء عقابك.

﴿١٩٢﴾ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾

وهم ينادون ربهم وخالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم ويشتكون إليه أن من أدخله - سبحانه وتعالى - ناره فقد أخزاه وأذله وأبطل سعيه، فهم يستعيذون من ذلك ويرجونه - سبحانه وتعالى - وهو الغفار أن يجنبهم النار؛ لأن من دخل النار فقد استوجب غضب الجبار، فليس له ناصر ينصره فيدفع عنه العذاب، ولا ولي يجلب له النفع، وكل من أشرك بالله فهو ظالم، وكل ظالم مستحق للعقوبة بلا شك.

﴿١٩٣﴾ ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾

ويا ربنا وخالقنا ورازقنا إننا سمعنا محمد بن عبدالله ﷺ ينادي بالقرآن، ويدعو إلى دينك وإلى توحيدك وإلى طاعتك فاستجبنا له، وسمعنا كلامه واقتدينا بسنّته واهتدينا بهداه واتبعنا طريقه؛ فنسألك يا ربنا أن تستر منا العيوب، وأن تغفر لنا الذنوب، وأن تكفّر عنا السيئات والجرائم، وكل ما اقترفنا، ونسألك أن تختم لنا بخير، وأن تثبتنا على الحق حتى تتوفانا مع أوليائك وأتباع رسلك، وقد رضيت عنا وختمت لنا بخير وتوفيتنا على الملة.

﴿١٩٤﴾ ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾

ونسألك يا ربنا أن تحقق لنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من الثواب الجزيل، وغفران الذنب والتجاوز عن الخطيئة وجوارك في جنات النعيم، والفوز بالنظر إلى وجهك الكريم، ولا تفضحنا يا ربنا ولا تذلنا ولا تهنا على رؤوس الأشهاد يوم تجمع الأولين والآخرين، إنك يا ربنا لا تخلف ما وعدت، فإنه لا أصدق منك قيلاً، ولا أحسن منك حديثًا، فنحن ننتظر ما وعدتنا به، ونستنجز ما أخبرت به، وننتظر ما ذكرته في كتابك وعلى لسان رسولك ﷺ.

﴿١٩٥﴾ ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾

فقبل الله دعوتهم وحقق أمنيتهم ولبّى سؤالهم وأخبرهم - سبحانه وتعالى - أنه لن يترك سعي ساع ولا إثابة محسن، بل ادخر لهم الأجر العظيم، والنعيم المقيم سواء كانوا رجالاً أو نساءً، فإن النساء شقائق الرجال، والرجل والمرأة متعاونان على طاعة الله - عز وجل - من الإيمان والهجرة والدعوة والجهاد، فالرجال مثل النساء، والنساء مثل الرجال؛ لأنهما من آدم وحواء، وكلهم شُرِّفوا بالرسالة، فالذين خرجوا من أوطانهم من الرجال والنساء، وفارقوا ديارهم وأهلهم وأموالهم ومراتع شبابهم، ومغاني صباهم، وطُردوا من بيوتهم، وأُوذوا في سمعتهم وفي أعراضهم، ونُكّل بهم وعُذّبوا بسبب دينهم، ونالهم من الأسر والطرد والتشريد والقتل والجراحات وقاتلوا أعداء الله - سبحانه وتعالى - وثبتوا في المعارك، وصمدوا في الأزمات وقُتلوا في سبيل الله شهداء، فقد أقسم - سبحانه وتعالى - أن يكفّر عنهم سيئاتهم، ويغفر زلاتهم، ويمحو خطيئاتهم، ثم يدخلهم جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فينعمهم هناك، ويثيبهم في داره التي بناها بيده، وهذا الأمر هو جائزة لهم على حسن عملهم وعلى كريم سعيهم، والله - سبحانه وتعالى - يثيب أحسن الثواب، وأجلّ العطاء، وأعظم الهبات، فإن عطاءه لا يشبهه عطاء، وهبته لا تعادلها هبة.

﴿١٩٦﴾ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾

لا تنخدع بما يظهر لك من حال الكفار وتقلبهم في المناصب والأموال والنعم واللذات العاجلة والشهوات الزائلة، والأماني الخدّاعة، فإن هذه دنيا لا يُغتر بها ولا يوثق بها، ومتاع الكافر منها كمتاع الدابة، وكحياة البهيمة، ليس إلاَّ!!

﴿١٩٧﴾ ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

وهذا كله الذي يمر به الكفار إنما هو وقت قصير، ومتاع زائل حقير لا اعتداد به بالنسبة إلى ثواب الله - عز وجل - في جنات النعيم، فإن هؤلاء الكفار يقضون شهواتهم في عجل وهم مستعجلون، ويمرون بالحياة مرورًا ثم يأوون في الآخرة إلى نار جهنم التي مهدوها بسوء أعمالهم، وفرشوها بقبائح صنيعهم؛ ليجدوا سعيهم القبيح، وعملهم الخبيث ينتظرهم هناك.

﴿١٩٨﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾

أما الذين خافوا ربهم وراقبوه وعملوا بما أحبه وتركوا ما أسخطه، فهؤلاء لهم نعيم مقيم، ولهم مقام طيب آمن في جوار ربهم من الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء، والقصور والدور والأنهار، وهم مع ذلك مخلدون لا يخشون انتقالاً ولا يخافون هرمًا ولا ينتظرون سقمًا ولا يجدون نصبًا ولا تعبًا ولا مشقة، وهذا كله مهيأ لهم وجائزة من الله - سبحانه وتعالى - وهبة من عنده - جل في علاه -؛ لأنه لما وفقهم إلى العمل ادخر لهم أحسن الجوائز، وأعظم الهبات، وما عنده - سبحانه وتعالى - خير مما يحصل للكفار في الدنيا من الربح في الأسفار، وجمع الدرهم والدينار، والتباهي بالقصور وسكنى الدور، ولكنه غرور.

﴿١٩٩﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

من اليهود ومن النصارى فريق يؤمن بالله - عز وجل - وما أُنزل على رسلهم وما أُنزل على محمد ﷺ فيجمعون بين الإيمان بأنبيائهم وبالنبي العربي الأمي ﷺ وهم مع ذلك خائفون من ربهم، موقنون بموعوده عاملون بشرعه ولا يستبدلون دين الله - عز وجل - بعرض فان من الدنيا، ولا بثمن بخس من الحياة، لا من مناصبها ولا من أموالها، بل ثابتون على دينهم صادقون في طاعة ربهم متبعون لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لا يبخسهم الله -سبحانه وتعالى - أجرهم، ولا يضيع سعيهم، بل لهم أجر عظيم عند ربهم، فالله - سبحانه وتعالى - يرحمهم في ذاك اليوم العظيم، وهو سريع الحساب، وهو يحاسب العدد الكبير في الوقت القصير، وقد اطلع على أعمالهم وعلم نياتهم - جل في علاه - وهذا من العدل في الحكم، فالواجب على الإنسان أن يفرق في الحكم بين المهتدي والضال، والمصيب والمخطئ، فإن الله - عز وجل - استثنى بعض أهل الكتاب حكمةً منه وعدلاً لا إله إلا هو، لأنهم أصبحوا في عداد المسلمين.

﴿٢٠٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

أيها المؤمنون، عليكم بالصبر على الطاعات وأدائها على أكمل وجه، والصبر عن الشهوات والمعاصي والمخالفات باجتنابها والتوبة منها، والصبر على أقدار الله المؤلمة وعلى قضائه المرِّ بحسن العبودية واحتساب الأجر وعدم السخط والجزع، وعليكم بمصابرة الأعداء ومنازلتهم ومغالبتهم ومراغمتهم في المعارك وساحات القتال، وفي ميادين النضال العلمي والردود عليهم ومجاهدتهم، وعليكم - أيضًا - بالمرابطة في ثغور الجهاد العملية، والمرابطة في أوقات العبادات، وملازمة المسجد للصلوات الخمس كما أخبر ﷺ أن ذلك رباط لمَّا ذكر الوضوء وكثرة الخطى للمساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فمن صبر وصابر ورابط فاز بالأجر العظيم والنعيم المقيم، وأعطاه الله أشرف الجوائز وأعظم الهبات ووصل إلى أعلى المراتب، ونال أسمى المطالب، بسبب أنه تعبَّد الله - عز وجل - في المواطن كلها، في موقف الطاعة وفي موقف المعصية، وفي موقف الابتلاء، فكان من عباد الله المخلصين، ومن أوليائه الصادقين جعلنا الله منهم.